العودة إلى القرآن

لماذا وكيف؟

مجدى الهلالى

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م

رقم الإيداع: ١٧٤١٨/ ٢٠٠٣

الترقيم الدولي: I.S. B.N

977 - 265 - 475 - X

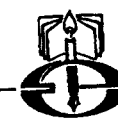

دار التوزيع والنشر الإسلامية

مصر - القاهرة - السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٣٩٣١٤٧٥

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١

www.eldaawa.com

email:info@eldaawa.com

المقدمة

الحمد لله رب الأولين والآخرين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد..

فلقد أكرم الله عز وجل هذه الأمة بخير رسالة أرسلها إلى البشر، ضمّن فيها سبحانه وتعالى كل ما يكفل للإنسان العيش السعيد الآمن فى الدنيا، والنعيم المقيم فى الآخرة.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٥٧].

هذه الرسالة عندما استمع إليها نفر من الجن أدركوا قيمتها العظيمة، وفهموا المقصد من نزولها، فسارعوا إلى قومهم ليخبروهم بما علموا.. فماذا قالوا لهم؟

﴿ **قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الأحقاف: ٣٠-٣٢].

ولم يكن هؤلاء النفر من الجن وحدهم هم الذين أدركوا قيمة القرآن؛ ففى تاريخنا أسطر من نور تقص علينا أن جيلاً كاملاً قد أحسن استقبال القرآن، وتعامل معه على أنه منهج حياة جاءهم من عند مالك الحياة- رحمة منه وفضلاً- ليعينهم على السير فيها بما يحقق لهم السعادة فى دنياهم وأخراهم.

فهم الصحابة- رضوان الله عليهم- المقصد العظيم من نزول القرآن؛ فتعاملوا معه من هذا المنطلق، وأتوه من أوله، فأعطوه عقولهم وقلوبهم وأوقاتهم، فأحسن القرآن وفادتهم، وأكرمهم بكرمه البالغ، وأعاد صياغتهم من جديد، ليخرجوا من مصنعه أناساً آخرين، لم تشهد البشرية لهم نظيراً فدانت لهم الأرض، وسادوها فى سنوات معدودات.

.. ومضى الزمان، وابتعد المسلمون شيئًا فشيئًا عن القرآن قائداً وموجهًا، ومصنعًا للتشكيل والتغيير، واشتغلوا عنه بأمور أخرى، ولم يعطوه من أوقاتهم وأنفسهم ما

أعطاه الجيل الأول له، ولم يأتوا أمره من أوله، فما انطلقوا فى تعاملهم معه من المقصد الأسمى لنزوله.. فماذا كانت النتيجة، وماذا حصدت الأمة من وراء ذلك؟

لقد كانت النتيجة الطبيعية لإغلاق مدرسة القرآن وتوقف ماكيناته عن العمل أنَّ كل ما بناه الجيل الأول وحققه من مجد وعزٍّ تلاشى وأصبح أنقاضًا، وصرنا فى ذيل الأمم لا قيمة لنا، ولا اعتبار لوجودنا فأصبحنا أضيع من الأيتام على مائدة اللئام.

وتطبيقًا للقاعدة «من ثمارهم تعرفهم» فلقد عرفنا حسن تعامل الصحابة- رضوان الله عليهم- مع القرآن من خلال الثمار العظيمة التى تحققت فيهم وفى أمتهم.

وتطبيقًا لنفس القاعدة على الواقع الحالى للمسلمين نجد أنه ومع وجود بعض الانشغال بالقرآن حفظًا وتلاوة إلا أن ثمار هذا الانشغال لم تظهر للوجود بصورة واضحة، وهذا يدل على أن هناك حلقة مفقودة فى تعاملنا مع القرآن، وأن المطلوب معه أمر آخر بالإضافة إلى ما نفعله.

إننا وباختصار شديد نحتاج إلى عودة حقيقية إلى القرآن فندخل إلى عالمه ومصنعه، لتعيد ماكيناته تشكيلنا من جديد، وتغيير ما بأنفسنا، ليحقق الله وعده الذى لايُخلف، فيغير- سبحانه- ما حاق بنا من بؤس وعذاب وضياع.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١].

وهذا الكتاب «العودة إلى القرآن لماذا وكيف؟» يتناول هذا الموضوع، والذى يبدأ فى فصله الأول بالحديث عن الهدف الأسمى من نزول القرآن، وفى فصله الثانى يستعرض جوانب الهداية القرآنية، أما الفصل الثالث فيجيب عن تساؤل البعض عن كيفية التغيير القرآنى، ويأتي الفصل الرابع والذى بعنوان «القرآن بين الأولين والآخرين» ليقدم لنا النماذج التى تخرجت من مدرسة القرآن، ويستعرض كذلك تاريخ هجر القرآن، ووصول الأمر إلى ما وصل إليه الآن. والفصل الخامس بعنوان «حاجتنا إلى القرآن»، والسادس بعنوان «عقبات فى طريق العودة» ثم يأتى الفصل السابع مبينًا الوسائل العملية للعودة إلى القرآن تحت عنوان «كيف نعود إلى القرآن؟» أما الفصل الثامن والأخير فهو بعنوان معينات على الطريق.

نسأل الله عز وجل التيسير والسداد والقبول..

﴿ **رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [البقرة: ١٢٧].

الفصل الأول

لماذا أنزل اللّه القرآن؟

خلق الله عز وجل المخلوقات من أرض وسماء، وجبال ودواب، وماء وهواء و... قبل خلق الإنسان، وجعلها منقادة لعبادته، لا تعرف خالقًا سواه، ولا إلهًا غيره.. تسبحه وتسجد له قال تعالى: ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وخلق سبحانه وتعالى الملائكة وهم من خواص خلقه، وجعلهم مقربين إليه يقومون بتنفيذ أوامره فى تدبير أمور الكون.. وهم كسائر مخلوقاته فى حالة دائمة من التسبيح والعبادة له سبحانه ﴿ **وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ** ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

خلق آدم:

ومع عبادة الكون كله لله وتسبيحه الدائم له، فإنه سبحانه وتعالى أراد أن يخلق مخلوقًا جديدًا يعبده باختياره بعد أن يعطيه عقلاً لايوجد مثله فى سائر مخلوقاته، ويودع فيه من الملكات والمقومات ما يستطيع من خلالها أن يصل لمعرفة الله عز وجل لدرجة لم يصل إليها مخلوق آخر- بما فى ذلك الملائكة- وبجانب هذا العقل جعل له سبحانه وتعالى نفسًا تحب الشهوات، ولا تنظر إلى عواقب الأمور.. تريد أن تأخذ حظها من كل عمل يقوم به هذا المخلوق.. تحب الراحة، وتكره التكليف.

وبين العقل والنفس يوجد القلب الذى يُعد بمثابة الملك: يصدر الأوامر فيسمع له الجميع ويطيع.. ففيه مركز القيادة والإرادة واتخاذ القرار، ولقد خلقه الله سبحانه وتعالى بإرادة حرة، وأعطاه مزية حرية الاختيار وطالبه بعبادته بالغيب فى ظل هذه المعطيات.

أخبر سبحانه وتعالى الملائكة هذا الأمر ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ [البقرة: ٣٠].

فاستعظمت الملائكة أن يوجد مخلوق لايعبد الله عبودية تامة كبقية الخلائق، وأن يوجد مكان فى الوجود يُعصى فيه الإله ﴿ **قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٣٠].

ثم بيَّن سبحانه وتعالى للملائكة قدرات هذا المخلوق الجديد وإمكانيات عقله ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**

﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

وطلب سبحانه وتعالى من الملائكة السجود لآدم تشريفًا وتكريمًا له.. فانصاعت الملائكة للأمر إلا إبليس رفض التنفيذ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

كيف لمخلوق يرى جلال الله عز وجل، وآثار قوته وقدرته وقهره أن يرفض له أمرًا؟

لكنه الكبر والحسد، فعندما سأله المولى عز وجل عن سبب رفضه للسجود ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فكان العقاب الأليم: اللعن والطرد من رحمة الله والعقوبة بالحبس الأبدى فى النار ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨].

طلب إبليس:

عرف إبليس مصيره وبدلاً من أن يبادر بالتوبة عما فعله، ازداد حقدًا وحسدًا وكراهية لآدم - عليه السلام-، وطلب من الله عز وجل أن يمهله فى تنفيذ العقوبة طوال مدة الحياة الدنيا، لينتقم لنفسه من آدم وبنيه، ويسوقهم معه إلى النار ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [ص: ٧٩-٨١].

وبعد أن تمت المواقفة على طلبه، أقسم اللعين بعزة الله أن يعمل جاهداً طوال هذه المهلة على إغواء بنى آدم، وصدهم عن الصراط المستقيم بكل الطرق الممكنة ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

الهبوط إلى الأرض:

.. أسكن الله عز وجل آدم الجنة وجعلها داره، وخلق له زوجته حواء، وأباح لهما الجنة كلها إلا شجرة واحدة ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

بدأ إبليس عمله مباشرة فهو لايريد أن يضيع وقتًا من المهلة التى أخذها، واستهل ذلك بالوسوسة إلى آدم وزوجه بالأكل من الشجرة المحرمة، وادعى بأنها شجرة الخلد والملك، وأقسم لهما بالله على ذلك.

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠، ٢١].

لم يكن آدم وزوجته يظنان أن هناك من يقسم بالله كاذبًا، فأكلا من الشجرة لتنكشف لهما عوراتهما وينتصر عليهما اللعين.. حينئذ شعر آدم وزوجه بعظم الجرم الذى ارتكباه ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٢، ٢٣].

ندم آدم وزوجه ندمًا شديدًا، وتابا توبة صادقة إلى الله فقبل سبحانه توبتهما ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧].

ولكن لابد من اختبار آخر كى يعودا إلى دارهما- الجنة- مرة أخرى، فكانت الأرض هى مكان الاختبار الجديد ليهبطا عليها وتبدأ منها رحلة العودة، ويهبط معهما إبليس ليستمر فى عمله الذى طلب من أجله المهلة: ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٤، ٢٥].

هبطوا جميعًا إلى الأرض ليبدأ الصراع بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة ٣٨، ٣٩].

المشهد العظيم:

قدّر الله سبحانه وتعالى لآدم عددًا محددًا من الذرية يهبطون تباعًا إلى الأرض ليؤدوا الاختبار- اختبار العودة إلى الجنة - وقبل هبوطهم أخذ عليهم جميعًا العهد والميثاق على عبادته سبحانه وتعالي، ولقد وافق الجميع على ذلك، وشهدوا بأنفسهم على هذا

العهد ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢، ١٧٣].

أخبر سبحانه وتعالى الجميع بأنهم سيعودن إليه مرة أخرى ليسألهم عن العهد والميثاق والمهمة التى أنزلهم إلى الأرض من أجلها ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٩].

ولقد جعل الله عز وجل هذا العهد الذى وافق عليه الجميع مركوزًا فى داخلهم : فطرة تميل بهم إلى الحق، وإلى عبادته سبحانه وتعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠]

بدأت ذرية آدم فى الخروج إلى الأرض مجموعة بعد مجموعة لأداء الاختبار، وعندما تنتهى الواحدة وتنقضى مدة اختبارها ووجودها على الأرض تُنزع أرواحها وتذهب إلى القبور التى تعد بمثابة ساحات انتظار حتى ينتهى الجميع من أداء الامتحان.

يتوالى هبوط الناس إلى الأرض وخروجهم منها إلى أن يأتى آخر عدد قدّره الله عز وجل، فيؤدى الاختبار ويكتمل امتحان الجميع، فينتهى دور الأرض كقاعة امتحان فتتزلزل، وتُخرج من فيها ليبدأ يوم الحساب وإعلان النتائج : إما النجاح والعودة إلى الجنة أو الرسوب والحبس فى النار.

ماذا فعل الناس على الأرض ؟

خرجت الأجيال إلى الأرض بفطرة سليمة، مهيأة لعبادة الله عز وجل، ولكن إبليس اللعين لم يكن ليتركهم ينجحون فى امتحان العودة إلى الجنة.. وكيف يتركهم وقد طلب المهلة من الله عز وجل لا ليرتاح بل ليضل الناس جميعًا ويسوقهم معه إلى النار؟! فهو يعتبر أن كل فرد ينجح فى الفرار منه، والعودة إلى الجنة دليل على أفضلية آدم عليه وأحقيته بالسجود له- كما طلب الله منه- لذلك فهو يعمل جاهداً على غواية الجميع من خلال ذريته، وألا يفلت أحد من قبضته، فتراه لايترك فرصة للإضلال إلا ويستغلها.

مدخله الأساسى النفس البشرية وما فيها من جوانب ضعف كثيرة، وولع بالشهوات، وحب للراحة فيدخل إلى القلب من خلالها ليستولى على إرادته فيصير أسيراً له يأمره

وينهاه كيفما شاء ﴿ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩].

وللأسف الشديد فقد اتبعه خلق كثير ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٠- ٦٢].

اتبعوه بإرادتهم بعد أن زين لهم الدنيا وزخرفها، وأنساهم ربهم وماطالبهم به ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ [المجادلة: ١٩].

فانتهت حياة الكثيرين منهم نهاية مظلمة، وانكشفت لهم الحقيقة، ولكن بعد فوات الأوان وانتهاء فترة الامتحان ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

حب الله لعباده:

بالرغم من اتباع الغالبية العظمى من الناس لعدو الله إبليس، ونبذهم عبادة ربهم إلا أنه سبحانه وتعالى لم يشأ أن يعاقبهم على ذلك بحرمانهم مما حباهم به، فنعمه عليهم مستمرة ورعايته لهم قائمة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

لا يتربص بهم، ولا يأخذهم حال معصيتهم ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٦٧].

بل يمهلهم ويعطيهم الفرصة تلو الفرصة ليعودوا إليه قبل فوات الأوان ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١].

يصبر عليهم وهم يتمادون فى العصيان والكفر.. يحلم بهم لعلهم يفيقون ويثوبون إلى رشدهم.. يُمسك السموات أن تقع على الأرض والبحار من أن تُغرقها غضبًا منها

على العصاة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [فاطر: ٤١].

لم يتركنا نواجه الشيطان بمفردنا بل جعل لكل منا ملكًا يحضه على فعل الخير.

قال ﷺ: «**في القلب لمتان: لمة من المَلَك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله، ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾** [البقرة: ٢٦٨] (١).

ومن صور رحمته وحبه لعباده أنه - سبحانه وتعالى - قد جعل باب التوبة مفتوحًا أمام الجميع، فلا يغلقه أمام الإنسان - أى إنسان - إلا في اللحظات الأخيرة من حياته، وعند نزع الروح، وانتهاء فترة الامتحان.

الرسائل السماوية:

ومن دلائل حب الله لعباده كذلك: تلك الرسائل التي أرسلها لهم على مر الأزمان، تُذكرهم بما خُلقوا من أجله، وأنهم سوف يعودون إليه شاءوا أم أبوا ليحاسبهم عما فعلوه.. يرغبهم فيها بنعيم الجنة إن هم أطاعوه، وينذرهم بالنار ليخافوه ويستقيموا على أمره ﴿ **لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ** ﴾ [الزمر: ١٦].

واختار سبحانه وتعالى خير عباده من البشر ليقوموا بتبليغ رسالاته إلى الناس: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل: ٣٦].

وأعطى كل رسول من رسله دليلاً على صدقه فيما جاء به من ربه لكيلا يشك الناس في أمره ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً** ﴾ [هود: ٦٣، ٦٤].

كيف تعامل الناس مع هذه الرسائل؟

في كل مرة يُرسل الله فيها رسالة إلى طائفة من عباده مع رسول من رسله يستجيب القليل لنداء الرسول ويطيعونه فيما جاء به من ربه، ويمتنع الكثير عن طاعته استجابة منهم للشيطان.

(١) أخرجه الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من حديث ابن مسعود.

يستمر التكذيب فيمهلهم الله عز وجل لعلهم يستجيبون لدعوته، وينقذون أنفسهم من سوء المآل، ولكنهم فى الغالب يظلون على عنادهم فيحق عليهم وعيد الله، فيأخذهم أخْذَ عزيز مقتدر.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

.. وهكذا تتوالى الرسائل من السماء إلى أهل الأرض أن أفيقوا قبل فوات الأوان.. لا تتبعوا الشيطان ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى: ٤٧].

إذن فجوهر الرسائل كلها هداية الناس إلى الله، وإلى صراطه المستقيم، وإنقاذهم من طريق الشيطان.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٦].

الرسالة الأخيرة:

كانت الرسائل التى أرسلها الله عز وجل للبشر تخاطب قومًا من الأقوام فى فترة زمنية محددة، حيث كان التقدم الحضارى والاتصال بين الأمم محدوداً، وبعد الرسالة التى أرسلها الله سبحانه وتعالى مع عيسى ابن مريم عليه السلام لبنى إسرائيل ازداد انحراف الناس أكثر وأكثر، واحتاجت البشرية إلى رسالة تخرجها من الظلمات إلى النور فكان القرآن.. ذلك الكتاب الذى أرسله الله عز وجل للبشرية جمعاء فى كل زمان ومكان حيث يتلاءم مع ما سيحدث فى الأرض من تقدم علمى وحضارى غير مسبوق.

فالهدف الأساسى من نزول القرآن: هداية الناس إلى الله وإلى صراطه المستقيم، والعيش على الأرض بأمان، والعودة إلى الجنة بسلام.

قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

رسالة منطلقها الرحمة الإلهية بالناس لإنقاذهم من النار وإخراجهم من الظلمات ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١].

أعظم رسالة:

لأن القرآن هو رسالة الله الأخيرة للبشرية فقد أرسله سبحانه وتعالى مع خير رسله، وتولى بنفسه حفظه من التبديل والتحريف ليستمر فى أداء دوره حتى قيام الساعة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

أنزله سبحانه وتعالى بلغة عربية عذبة، سلسة، بحيث يستطيع أى إنسان أن يفهم الحقائق الأساسية لتلك الرسالة مهما كان حظه من الثقافة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

ولقد جعلها الله عز وجل رسالة موجزة ليسهل حملها وحفظها وقراءتها.

وكونها رسالة موجزة فلابد من قراءتها بتأن وتؤدة حتى يتمكن السامع والقارئ من فهم المقصود منها ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ولأنها لا تخاطب العقل فقط، بل الوجدان أيضًا، كان الأمر بترتيلها والتغنى بها لتكون أكثر تعمقًا فى النفس، قال تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤].

يسرها الله للقراءة، فلا تحتاج إلى أماكن محددة أو أزمنة خاصة لتُقرأ فيها، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر: ١٧].

ولكى يتم دوام الاستفادة منها كان من الضرورى أن يداوم المسلم على قراءتها يوميًا، فكان التحفيز وشحذ الهمم لذلك برصد الجوائز لكل من يقرأ فيها حرفًا فيكون ذلك دافعًا لقراءتها، ومن ثم حدوث المقصود من نزولها.

ولقد جعل سبحانه وتعالى مواضيعها الأساسية مكررة فى كثير من السور بأساليب مختلفة لتتم بها التذكرة فى أى موضع يلتقى فيه المسلم مع القرآن، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا** ﴾ [الفرقان: ٥٠].

ولأن المعنى هو المقصود من القراءة كان الأمر بالإنصات لها، وتدبرها، وإعمال العقل فى فهم المقصود من خطابها، قال تعالى: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [ص:٢٩].

.. كل هذا وغيره ليحدث المقصد العظيم من نزول القرآن ألا وهو هداية الناس إلى الله عز وجل واستنقاذهم من طريق الشيطان، قال تعالى: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس:٥٧].

الفصل الثانى

جوانب الهداية فى القرآن

أنزل الله عز وجل القرآن لمقصد عظيم ألا وهو هداية البشر إليه وإلى طريقه المستقيم، وقيادتهم إلى جنته ورضوانه، وإنقاذهم من إبليس ومن المصير الذى يقودهم إليه.

يقول تعالى: ﴿ **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

فالقرآن حبل الله الممدود بين السماء والأرض، من تمسك به نجا من الهلاك كما قال ﷺ: «**أبشروا، أبشروا! أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله**؟ قالوا: نعم. قال: «**فإن هذا القرآن سبب، طرفه بيد الله عز وجل وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً**» (١).

إنه المصباح الذى اجتبى به سبحانه وتعالى هذه الأمة، فلا سبيل لهدايتها إلا به، قال تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ** ﴾ [فصلت: ٤٤].

مفهوم الهداية:

القارئ للقرآن المتدبر لمعانيه، يجده كثيراً ما يصف نفسه بأنه نور وهدى للناس.. فماذا تعنى كلمة الهداية وكيف تكون؟!

قال ﷺ لعلى بن أبى طالب: «**يا على! سل الله الهدى والسداد، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد تسديدك السهم**» (٢).

فمعنى الهداية بصفة عامة: معرفة الطريق الصحيح الموصل للهدف الذى يسعى المرء لبلوغه.

فإن كان الأمر كذلك، فما هو هدف المسلم فى الحياة وكيف يبلغه؟!

أليس الهدف هو: رضا الله عز وجل ودخول جنته، كما فى الدعاء: «اللهم إنى أسألك رضاك والجنة»؟!

ولقد أخبرنا سبحانه وتعالى بأنه ليس هناك إلا طريق واحد يؤدى إلى هذا الهدف، ألا وهو: الصراط المستقيم.

---

(١) رواه ابن حبان عن طريق أبى بكر بن أبى شيبة رقم (١٧٩٢)، (موارد الظمآن) وهو حديث صحيح كما قال الألبانى فى السلسلة الصحيحة رقم (٧١٣).

(٢) صحيح، أخرجه الإمام أحمد والنسائى والحاكم عن على بن أبى طالب، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ح (٧٩٥٢).

قال تعالى: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

والطرق التى تحيط بالصراط كثيرة، ويقف على رأس كل منها شيطان يدعو الناس إليه، كما أخبرنا بذلك المعصوم ﷺ.

فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطًا بيده، ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيمًا**» وخط عن يمينه وشماله ثم قال: «**هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه**» ثم قرأ ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾(١).

هذا الطريق المستقيم ينبغى على المسلم أن يعرفه من بين الطرق الأخرى المحيطة به، وأن يسير فيه طيلة حياته حتى يلقى ربه..

فكيف له ذلك؟!

لم يشأ سبحانه وتعالى أن يترك الإنسان بدون دليل يدله على الصراط، ويهديه إليه.. فكان القرآن.

قال تعالى: ﴿ **قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [الأحقاف: ٣٠]

وقال سبحانه: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾ [الإسراء: ٩].

ولقد بين ذلك رسول الله ﷺ فى الحديث الذى رواه عنه النواس بن سمعان قال: «**ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتى الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعًا، ولا تتعوَّجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله، والداعى من فوق: واعظ الله فى قلب كل مسلم**»(٢).

---

(١) رواه النسائى والحاكم وصححه.

(٢) صحيح، أخرجه الإمام أحمد فى مسنده والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ح (٣٨٨٧).

كيفية الهداية القرآنية:

هداية القرآن للناس تتم من خلال كشفه وإنارته لكل الجوانب التى تتعلق بحركة الإنسان الخارجية، وكذلك كل ما يوجد بداخله من جوانب غامضة، وأسئلة حائرة، وتصورات خاطئة. فالقرآن يكشف هذه الجوانب، ويوجهها الوجهة الصحيحة، وهو ما يعبر عنه «بسبل السلام»، فهدفه الأساسى الوصول بمن يتبعه إلى بر الأمان فى كل ما يتعلق به من أمور فى الدنيا قبل الآخرة.

يقول تعالى: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

فمن خلال القرآن يحدث الانسجام بين المرء وفطرته المجبولة على عبادة الله عز وجل، وبه يحدث السلام بينه وبين نفسه، وبينه وبين من حوله من أفراد، وكذلك مع الكون المحيط به، ومع كل ما فى يديه من أدوات مثل الأولاد والمال..

هذا على سبيل الإجمال.

أما على سبيل التفصيل، فعندما يوجد الإنسان فى الدنيا، ويبدأ عقله فى النمو والتمييز والإدراك، ويصل إلى سن البلوغ، فمن الطبيعى أن تتوارد على عقله تساؤلات كثيرة تتردد داخله من مثل هذا النوع وغيرها:

١- من الذى خلقنى وخلق الناس جميعًا؟ ما اسمه وكيف أتعرف عليه، وما الدليل الذى يؤكد على أنه الخالق، فهناك الكثير من الآلهة المزعومة؟! [**من هو الله؟**].

ولماذا خلقنى هذا الإله وميزنى عن سائر ما أجد من مخلوقات؟ ما المطلوب منى؟! [**واجبات العبودية**].

٢- اسمع عن شخص اسمه محمد ﷺ، قد أرسله الله عز وجل إلى البشر، معه رسالة منه- سبحانه- فمن هو هذا الرسول، وما دوره، وما طبيعة الرسالة التى يحملها؟!

٣- أرى الناس تتسابق على جمع المال، وعلى التمتع بما فى الدنيا من زينة، ومع ذلك أراهم يموتون دون أن يأخذوا من دنياهم شيئًا، فلماذا إذن يتكالبون عليها؟!

وأرى كذلك أناسًا قد حُرموا الغنى وآخرين حُرموا الصحة، وآخرين حرموا الأولاد.. فلماذا لايكون الجميع سواسية؟... وماذا بعد الموت؟ [**قصة الوجود**].

٤- أشعر بنوازع ودوافع تدفعنى إلى الفجور، والاستئثار بكل خير والتطلع لما عند الآخرين، وأشعر كذلك بصوت من داخلى يؤنبنى على بعض ما أفكر فيه وأقوم به.. فمن أنا؟ وما الذى يحدث بداخلى؟ وكيف تهدأ أمواج الخواطر، والتطلعات، وأحلام اليقظة التى تضطرم فى كيانى؟ [**من هو الإنسان؟**].

٥- أشعر فى بعض الأحيان وكأن هناك من يدفعنى لفعل الشر، ويعمل على إبعادى عن القيام بأعمال الخير، وهذا لايأتى إلا من عدو.. فمن هو هذا العدو؟ وكيف أتقيه؟ [**من هو الشيطان؟**].

٦- أجد نفسى فى كون فسيح ملئ بالمخلوقات من نبات وحيوان وجماد، فما علاقتى به وكيف أتعامل معه؟ وهل ما أراه بعينى هو فقط الموجود فى هذا الكون أم أن هناك مخلوقات لا أراها، فأنا لا أرى الهواء مثلا لكننى أشعر بوجوده!! [**التعرف على الكون**].

٧- ألاحظ أن الكون من حولى يسير وفق نظام دقيق: فالشمس تشرق فى الصباح وتغرب فى المساء، والفصول الأربعة تتوالى بدقة متناهية، ودورة حياة الإنسان تسير بنظام ثابت، وكذلك الحيوان والنبات.. فهناك إذن نظام وقوانين تحكم كل شىء، فما هى تلك القوانين؟ وكيف أعرفها لأستفيد بها؟ [**القوانين الحاكمة للكون والحياة**].

٨- أجد نفسى وسط أبوين وأشقاء وأقارب وجيران، ثم زوجة وأولاد وزملاء.. فما شكل العلاقة التى ينبغى أن أتعامل بها مع هؤلاء؟! [**حقوق العباد بعضهم على بعض**].

٩- أجد الكثير من الناس حولى تائهين يسيرون فى طرق متعددة، بعضهم لايعتقد بأن هناك إلهًا للكون، والآخر يدعى أن إلهه فلان، وتتعدد المزاعم، ويثيرون الشبهات حول الإله الحق.. فلماذا لا يتبع الناس الحق، وكيف ندعوهم إليه؟ [**لماذا لايتبع الناس الحق؟**]

١٠- أسمع عن أناس جاءوا إلى الدنيا قبلى ثم خرجوا منها... فماذا كان حالهم؟ وماذا فعلوا من صواب لأقوم به، ومن خطأ فأجتنبه؟ [**العبرة من قصص السابقين**].

مثل هذه الأسئلة وغيرها من المفترض أن تتردد فى ذهن كل عاقل يبحث عن سر وجوده، وبالإجابة عنها يهتدى المرء إلى سبل السلام، ويعيش فى سكينة وطمأنينة.

ولأن القرآن كتاب هداية فلقد أفرد للإجابة عن هذه الأسئلة العشرة مساحات كبيرة فيه، وكررها فى مواضع متعددة ليتم بها دوام التذكر، وفى الصفحات القادمة سيتم بمشيئة الله وعونه وفضله عرض نماذج للإجابة عن هذه الأسئلة من خلال القرآن ليستأنس بها الواحد منا عندما يبدأ عهده الجديد مع القرآن بالبحث عن جوانب الهداية فيه.

الجانب الأول للهداية القرآنية

التعرف على الخالق (من هو الله؟)
وواجبنا تجاهه (واجبات العبودية)

التعرف على الخالق من أهم جوانب الهداية، بل إنه المفتاح الذى يفتح الباب للجوانب الأخرى. وإن كنا نحن المسلمين قد عرفنا من هو الإله الحق- رب العالمين- فإن هذه المعرفة العامة تحتاج إلى الكثير من التفاصيل لتترسخ مدلولاتها داخلنا، فينعكس ذلك على شكل العلاقة بيننا وبينه سبحانه وتعالى.

فعلى سبيل المثال عندما يتعرف الواحد منا على شخص ما معرفة عامة، فإن نظرته له ستكون نظرة عادية مثله مثل غيره لا تلفت انتباهه، فإذا ما اقترب منه وازدادت معلوماته عنه، وعن قدراته، وخبراته وشهادته، أو المنصب الذى يتولاه، فإن هذا من شأنه أن يزيده احتراماً وهيبة وتقديراً لهذا الشخص مما سينعكس على طريقة تعامله معه، والتى بلاشك ستختلف كثيراً عما كان من قبل.

المعرفة طريق الخشية والإجلال:

فعلى قدر معرفة الله عز وجل تكون الخشية منه، وعلى قدر الخشية تكون المراقبة، والمبادرة إلى الخيرات، وترك المنهيات كما فى الدعاء (اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك).

قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

فبينت تلك الآيات أن التفكر فى خلق السموات والأرض قاد هؤلاء الصالحين إلى المعرفة ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً**﴾ وأن المعرفة قادتهم إلى الخشية ﴿**فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾.

ونلمح ذلك المعنى فى قوله تعالى على لسان سيدنا موسى- عليه السلام- وهو يخاطب فرعون ﴿**وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ**﴾ [النازعات: ١٩]، ففرعون لايعرف الله عز

وجل لذلك لايخشاه ولا يحسب له حسابًا، وموسى عليه السلام يريد أن يعرِّفه به حتى يخشاه فينتهى عما يفعله.

وكذلك فعل نوح - عليه السلام- مع قومه ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٣- ١٦]

وعندما سأل موسى ربه: يارب أى عبادك أخشى لك؟ قال: أعلمهم بى (١).

كيف نعرف الله؟

الله عز وجل أخبرنا بأنه ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وأنه ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

فما السبيل إذن إلى معرفته؟!.

.. نعم لا يعرف الله إلا الله- سبحانه وتعالى- كما قال ﷺ: «**لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**».

ومع ذلك فقد أتاح لنا- سبحانه وتعالى- جزءًا من المعلومات عنه بدرجة تتحملها عقولنا من خلال ما أخبرنا به من أسمائه وصفاته، والتى أودع مظاهرها وآثارها فى مخلوقاته، وبقدر التتبع لهذه الآثار وربطها بالأسماء والصفات تكون المعرفة.

فالقاعدة تقول: «من آثارهم تعرفونهم» فعندما يصف الناس شخصًا ما بأنه محسن -مثلاً- فإن هذا الوصف لن يقع موقعه فى النفس إلا إذا رأيت آثار إحسانه.. وكلما تتبعت تلك الآثار وشاهدتها بنفسك يزداد يقينك بصحة وصفه بهذا الوصف.. ولله المثل الأعلى.

فالله عز وجل لا نستطيع أن نراه فى الدنيا، ولكنه سبحانه وتعالى خلق هذا الكون كله وجعله يدل عليه ،كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣]. وأخبرنا سبحانه وتعالى بأن له أسماء وصفات أودع آثارها فى كونه ومخلوقاته.

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد، ص (٧٥).

إذن فالطريقة السهلة لمعرفة الله عز وجل: أن نتعرف على آثار أسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١] وعلى قدر التتبع والتفكر فى هذه الصفات تزداد المعلومات عن الله عز وجل فينعكس ذلك على القلب بزيادة جوانب العبودية فيه.

دور القرآن فى معرفة الله:

من أهم سمات القرآن أنه كتاب تعريف بالله عز وجل فأكبر مساحة فيه تتحدث عنه سبحانه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله.

أما الطريقة التى ينتهجها القرآن فى تعريف الناس بربهم عن طريق أسمائه وصفاته فتتلخص فى هذه النقاط:

١- التعريف بالصفة.

٢- وصف الصفة.

٣- عرض آثار الصفة.

٤- العبودية المستحقة لها، وكيفية القيام بها، مع بيان صور الانحراف عنها.

نماذج تطبيقية:

١- أخبرنا القرآن بأن الله واحد- أحد- (صفة الوحدانية).

وصف القرآن هذه الصفة بعدة أوصاف منها أنه - سبحانه وتعالى- لاشريك له، لا إله إلا هو، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

- من آثار تلك الصفة:

قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقوله: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقوله: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ [لقمان: ١١].

ويرشدنا القرآن إلى العبودية الواجبة لهذه الصفة ألا وهى توحيده سبحانه وتعالى، وإخلاص العبادة له.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: ٥].

ويحذرنا من الوقوع فى الشرك بالله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء: ١١٦].

ويبين لنا من مظاهر الشرك بالله، وعاقبة المشركين فى الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

٢- الله عز وجل أخبرنا بأنه الوهاب- الرزاق - المنان- البر- المعطى- والتى يجمعها صفة الإنعام.

- **وصف الصفة**: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

- **مظاهر الصفة وآثارها فى الكون والنفس:**

مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ [الملك: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ [النور: ٢١].

- **العبودية المطلوبة**: الشكر.

قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

صور الانحراف عن العبودية: الإعراض عن الشكر (الجحود ونكران النعم).

قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

٣- الله عز وجل أخبرنا فى القرآن بأنه عزيز- قهار- قاهر- ويجمعها صفة العزة والقهر.

وصف الصفة: والله غالب على أمره - يفعل ما يريد- إن الله بالغ أمره.

آثار الصفة: مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦].

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

- **العبودية المطلوبة**: الاستسلام والانكسار لله عز وجل.

﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

من صور الانحراف عن هذه العبودية:

مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨].

٤- الله عز وجل وصف نفسه بأنه الملك.

وصف الصفة: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢].

من آثار تلك الصفة: قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

العبودية المطلوبة: طاعة أوامره.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

- **من صور الانحراف عن هذه العبودية:** الفسوق والعصيان.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

الجانب الثانى

الرسول والرسالة

من جوانب الهداية فى القرآن التعريف برسولنا ﷺ، وبالرسالة التى حملها إلى البشر.

قال تعالى: ﴿ **الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ [إبراهيم: ١].

فرسولنا ﷺ بشر مثلنا، كلفه ربه بحمل رسالته وتبليغها للناس.

قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ** ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ [الفرقان: ١].

هذا التبليغ يشمل شرح الرسالة القرآنية وتفصيل المجمل منها.

قال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [النحل: ٤٤].

ولقد قام ﷺ بهذا الدور خير قيام، فالناظر إلى سنته يجد أنها مكملة للقرآن ومفصلة له كما فى الحديث: «**ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه**» (١).

ففى القرآن والسنة عصمة من الضلال كما قال ﷺ: «**تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتى**» (٢).

ولقد تعرض الرسول ﷺ لكثير من المضايقات، واتُّهم بالعديد من الاتهامات والافتراءات فصبر على ذلك حتى نصره ربه، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا، قال تعالى: ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ** ﴾ [الروم: ٦٠].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذى عن المقداد بن معد يكرب، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع، ح (٢٦٤٣).

(٢) صحيح. أخرجه الحاكم عن أبى هريرة، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع، ح (٢٩٣٧).

وقال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧].

تربيته ﷺ على تمام العبودية:

وكما يعرفنا القرآن برسولنا ﷺ ودوره العظيم، فإنه كذلك يبين لنا كيفية تربيته ﷺ على تمام العبودية لربه، ليكون لنا نعم الأسوة.

مثل قوله تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠، ١٣١].

واجبنا نحوه ﷺ:

وفى القرآن تعريف بما هو مطلوب منا تجاهه ﷺ.

فمن ذلك: طاعته ﷺ.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ [آل عمران: ٣٢].

ومن لوازم طاعته ﷺ السير فى طريقه، واتباع سنته:

قال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧].

وعلينا كذلك حبه، وتوقيره، والصلاة عليه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

فالسعيد من جعل الرسول ﷺ قدوته:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

الرسالة القرآنية:

ومع التعريف برسول الله ﷺ ودوره، وواجبنا نحوه، يأتى التعريف بالقرآن ذاته ليدرك الناس مدى أهميته:

فالقرآن كتاب هداية كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

يخاطب العقول فيقنعها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

ويؤثر على المشاعر فيؤججها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

يزيد الإيمان: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال:٢].

ويبنى اليقين الصحيح: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١].

الجانب الثالث

التعريف بالإنسان(١)

خلق الله عز وجل الإنسان وجعله مكونًا من عقل وقلب ونفس وجوارح.

العقل:

أما العقل: فلقد جعله سبحانه وتعالى محلاً للعلم والمعرفة، به كرَّم الإنسان على سائر مخلوقاته، وأودع فيه من الأسباب والقدرات ما يمكنه من الوصول إلى معرفته بدرجة لم يصل إليها مخلوق من قبل، وليس أدل على هذا من تلك الاختراعات التى وصل إليها العقل كالحاسب الآلى ومركبات الفضاء... إلخ.

والأمر اللافت للانتباه أن الأبحاث الحديثة قد أثبتت أن الإنسان لايستخدم إلا جزءاً يسيراً من قدراته العقلية، فلاتزال فى العقول إمكانات هائلة معطلة..

ولاشك أن أى عاقل لايستخدم عقله ولا يستفيد مما حباه الله به قد أهان نفسه، وسفهها بحرمانها فائدة هذا العضو الشريف.

.. نعم إن الناس يتفاوتون فى قدرات عقولهم، ومع هذا التفاوت فإن الحد الأدنى عند كل عاقل كفيل بأن يعينه على معرفة الله عز وجل.

من هنا نجد أن القرآن يُعلى من شأن العقل، فتراه يستحث قارئه على استخدامه فنجد الكثير من الآيات تنتهى بقوله تعالى: ﴿ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ ﴿ **أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ** ﴾ ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾.

ولأجل أن يستخدم الإنسان عقله فى الوظيفة التى خُلق لها نجد القرآن يدعوه إلى تحرير هذا العقل من أسر التقاليد والأعراف الخاطئة مثل قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ** ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤]

فتحرير العقل واستخدامه فيما خلق من أجله مع ضبطه بضوابط الشرع من أهم الوظائف التى يقوم بها القرآن، فمن خلال الفكر الصحيح يصل المرء إلى صحة النقل، فقضية الوحدانية على سبيل المثال خاطب فيها القرآن العقل كقوله تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُم**

(١) سيتم بمشيئة الله بسط القول فى هذا الموضوع فى الفصل الثالث: القرآن والتغيير.

﴿ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأحقاف : ٤].

فالقرآن إذن يعرِّف الإنسان بقيمة عقله ويُعلى من شأنه، ويحترمه ويدعوه إلى استخدامه في التفكر، وفهم المقصود من الخطاب، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ : ٤٦].

والقرآن كذلك يعرض صوراً لأناس أهانوا عقولهم، وعطلوها، فأصبحوا شر الدواب، قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٢].

النفس :

من تعريفات النفس أنها مجموعة الشهوات والرغائب داخل الإنسان، ومن طبيعتها أنها تحب الراحة وتكره التكليف، وتعمل على الحصول على شهواتها وحظها في كل فعل يقوم به العبد .. لا تنظر إلى العواقب، كالطفل الذي يلح على أبويه في الحصول على شيء قد يكون فيه حتفه، فهي كما وصفها القرآن ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف : ٥٣].

– شحيحة تحب الاستئثار بكل خير، قال تعالى : ﴿ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ [النساء : ١٢٨].

– لديها قابلية للفجور والطغيان إذا ما أرخى لها العنان، ولديها كذلك القابلية للانكماش والحذر إذا خُوفِّت، قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : ٧، ٨].

أما الهوى فهو ما تميل إليه النفس من شهوات ورغائب.

إذن فالنفس هي العقبة الكئود بيننا وبين الله عز وجل، ولقد خلقها سبحانه وتعالى بهذه الصفات ليختبر مدى صدق عبوديتنا له .. وهنا يأتي دور القرآن العظيم في تعريف الناس بأنفسهم ونقاط ضعفها وخطورتها، وما فيها من قابليات، ويرشدهم إلى طريق تزكيتها ومجاهدتها على القيام بطاعة الله بصدق وإخلاص.

والقرآن يدخل إلى أعماق النفس- أى نفس- حتى آخر نقطة فيها، فيواجهها، ويوجهها، وكأنه قد نزل من أجلها دون غيرها.

ولايكتفى القرآن بذلك بل يعرض نماذج للمؤمنين الذين زكوا أنفسهم وجاهدوها ليتأسى بهم القارئ، ويعرض كذلك صوراً لأناس تركوا الزمام لأنفسهم وساروا وراء أهوائهم حتى أهلكتهم.

قال تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا** ﴾ [الشمس: ٧-١٥].

القلب:

وفى القرآن تعريف بقلب الإنسان، وأنه الملك على سائر الأعضاء، وأن حياته الحقيقية إنما تكون بالإيمان بالله عز وجل.. هذا القلب يمرض، ومرضه إنما يكون بسيطرة الهوى عليه.

والقرآن يبين لقارئه صور الهوى التى تُمرض القلب، ويبين له كذلك كيفية شفائه منها، ويعدد له وسائل زيادة الإيمان، لتستقيم حياته وتقوى إرادته.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٥٧].

ولايكتفى القرآن بذلك بل يعرض نماذج للصالحين أصحاب القلوب الحية لنتأسى بهم كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

ويعرض كذلك صوراً لأصحاب القلوب المريضة القاسية لنتجنب مسببات تلك القسوة.

قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد: ١٦].

الجانب الرابع

التعريف بالشيطان

بعد أن رفض إبليس السجود لآدم – عليه السلام– طرده الله من رحمته وحكم عليه بالحبس الأبدى فى النار، فطلب إبليس مهلة قبل تنفيذ العقوبة.. هذه المهلة هى فترة وجود آدم وذريته على الأرض.

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ [ص: ٧٩– ٨١]

هبط إبليس إلى الأرض ليبدأ فى العمل على إضلال البشر وسوقهم معه إلى النار، مستهدفًا كل فرد يخرج إلى الدنيا.

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٦٢].

اعرف عدوك:

فإبليس إذن هو عدونا الذى أخرج أبوينا من الجنة، ويعمل على حرماننا من العودة إليها، بل على مرافقته فى النار.. أما الشياطين فهم ذريته وأعوانه: يأتمرون بأوامره وينفذون مخططاته. وما يوم تشرق شمسه إلا ولهذا العدو فخ جديد ينصبه، ومحاولة للصد عن سبيل الله يحاولها.

يدخل على كل عبد من مناطق ضعفه، فهذا يدخل عليه من باب حبه للنساء، وهذا من باب حبه لجمع المال، وهذا من باب الإكثار من الطعام، وهذا من باب سوء الظن، وهذا من باب البدعة، وهذا من باب ترك الفاضل وفعل المفضول.

المهم أنه لايريد أن يخرج صفر اليدين فى معركته مع العبد.

.. إنه أمر مخيف أن نتعامل مع عدو يملؤه الحقد والحسد والكراهية نحونا، ولايرضى بأقل من النار مصيرًا لنا.. يرانا ولانراه.. نغفل عنه ولا يغفل عنا.. يدخل علينا من المداخل التى نحبها.

فما العمل إذن؟! وما السبيل إلى محاربته وتوّقيه؟

.. إنه القرآن الذى بين أيدينا، فهو دائم التحذير من خطورة الشيطان،وعداوته المتأصلة للبشر جميعًا.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [فاطر:٦].

ويذكرنا دائمًا بماضيه مع البشر، وكيف استطاع أن يضل الكثير منهم.

قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ** ﴾ [يس: ٦٠– ٦٢].

ولايكتفى القرآن بهذا كله بل يبين لقارئه أبوابه، ومداخله عليه، وكيف يحترز منها. مثل قوله تعالى: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [فصلت: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا** ﴾ [الإسراء: ٥٣].

الجانب الخامس

قصة الوجود ويوم الحساب

الكثير من الناس يدخل إلى الدنيا ثم يخرج منها وهو لايدرى لماذا وُجد فيها، بل إنه لايجهد نفسه فى البحث عن إجابة لهذا السؤال، فهو يسير مع غيره.. همه جمع المال وتأمين احتياجاته من مطعم ومشرب وملبس ومسكن.

يتزوج كغيره وينجب الأولاد ليزداد سعيه من أجل تأمين مستقبلهم المادى فى الدنيا..

يكبر سنه شيئًا فشيئًا وهو يظن أنه قد أدى دوره فى الحياة، ثم يموتْ ليفاجأ بالحقيقة، يقول تعالى: ﴿ **لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** ﴾ [ق: ٢٢].

فما هى تلك الحقيقة التى يفاجأ بها الغافلون عند الموت: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].. إنها حقيقة الدنيا، وحقيقة المهمة التى خلقنا من أجلها.

الدنيا دار امتحان:

إننا – معشر البشر– لم نهبط إلى الدنيا، ونمض فيها ما نمضى من السنوات لنأكل، أو لنشرب، أو لنتزوج وتكون لنا ذرية.. بل لأمر عظيم أبت السموات والأرض أن تحمله: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

إنه اختبار فى عبادة الله عز وجل بالغيب فى ظل تمتعنا بحرية الاختيار، ومع وجود النفس الراغبة فى نيل الشهوات، وحب العاجلة.

وشاء الله عز وجل أن تكون الأرض هى مكان هذا الاختبار.. ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الكهف: ٧].

وحدد لنا سبحانه وتعالى شكل العبودية التى يريدها منا من خلال منهج وأدوات، وجعل المنهج ميسراً وسهلا: تكاليف قليلة، أوامر ونواهٍ ضمَّنها كتابه، وشرحها رسوله ﷺ، أما الأدوات فهى ما يعطيه- سبحانه- لعبده أو يمنعه عنه.. فيعطى بعضهم أشياء مثل المال، الصحة، المنصب... ويمنعها عن آخرين..

والهدف من العطاء: الشكر، ومن المنع: الصبر.. فمن أعطى مالا ولم يشكر الله عليه فقد رسب فى هذا الاختبار، ومن حرم الأولاد فصبر ورضى فقد نجح وحقق المطلوب منه.

فالعبد الصالح يستقبل العطاء، أى عطاء، مستشعراً قول الله عز وجل: ﴿ **هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ** ﴾ [النمل: ٤٠].

والآخر يستقبله وهو يردد ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ..** ﴾ [الزمر: ٤٩]، وهو لايدرى أنه اختبار ﴿ **بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر: ٤٩].

ويذكرنا الله عز وجل أنه ليس لأحد أن يملك شيئًا من الدنيا، فكل عطاء مسترد، وسنخرج منها كما دخلنا فيها، فالله عز وجل هو الذى سيرث الأرض ومن عليها من ذهب وفضة و...فما علينا إلا أن نردد ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٦].

لماذا الاختلاف بين الناس ؟!

فإذا ما تبين ذلك كانت الإجابة سهلة عن السؤال الذى يشغل بال الكثير، وهو لماذا الاختلاف بين البشر فى العطاء والمنع، وأيهما أفضل الغنى أم الفقر؟ من عنده أولاد أم من حرم منهم؟!

الأفضل من ينجح فى مادته.. فالغنى الشاكر خير من الفقير غير الراضى وغير الصابر، ومن حُرم الأولاد فصبر خير ممن رزق الأولاد ولم يشكر الله عليهم..

فالعبرة بالكيفية التى نتعامل بها مع المنع والعطاء، ويتضح هذا جليًا فى قوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلاَّ** ﴾ [الفجر: ١٥- ١٧].

أما الشيطان فهو يدخل علينا من نفس مداخله على أبوينا: الملك والخلد.. فيزين لنا العطاء على أنه ملك حقيقى، ويبهرج الدنيا أمام أعيننا، فنحبها ونتشبث بها ونتصارع

عليها، ثم نفاجأ بعد ذلك أننا لم نجن من ورائها إلا السراب ﴿ **يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً** ﴾ [النساء: ١٢٠].

إنها القصة المكررة منذ القدم:

فإن كان هذا هو المنهج وهذه هى الإجابة المطلوبة، فما هو زمن الامتحان ، ومن الذى يتولى الرقابة عليه؟!

أخبرنا الله عز وجل بأن زمن الامتحان يبدأ من وقت البلوغ والتكليف وينتهى عند نزع الروح من الجسد، وأخبرنا كذلك بأن باب التوبة مفتوح طوال هذه الفترة، فلنا أن نمحو كل الإجابات الخاطئة ونستبدلها بحسنات ما لم نغرغر..

أما تسجيل الإجابات والرقابة على الأرض فتتولاها أكثر من جهة، فالملائكة تسجل كل أعمالنا ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق :١٨].

وأجسامنا شهيدة علينا ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النور: ٢٤].

والكون كله يراقبنا ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ** ﴾ [الدخان: ٢٩].

ومع هذا كله، فالله عز وجل أحاط بكل ذلك فهو الشهيد- الرقيب- السميع- البصير- القريب- المحيط، قال تعالى: ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [المجادلة: ٧].

فشدة الرقابة وعدم معرفة وقت نهاية الاختبار يستلزم منا شدة اليقظة، ودوام محاسبة النفس، والحذر من الشيطان، وكثرة التوبة والإنابة إلى الله.

ويبقى السؤال: متى الحساب وإعلان النتيجة؟

يخبرنا القرآن فى عشرات الآيات بما سيحدث للأرض بعد انتهاء امتحان آخر مجموعة من البشر: ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ② وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ** ﴾ [الانشقاق: ١-٥].

فالأرض بعد انتهاء دورها تُخرج كل من فيها من البشر ثم تتحطم ليبدأ يوم الحساب في أرض المحشر.

الكل سيحاسب ﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلاَّ لا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٠-١٣].

جميعنا سيأتي يوم القيامة، ولكن كل واحد بمفرده دون حاشية أو أقارب أو معارف ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٥].

وستخرج معنا صحيفة أعمالنا وإجاباتنا عن كل شيء ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

إنه يوم عصيب ﴿ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ [المزمل: ١٧]، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧]، يتولى فيه سبحانه وتعالى بنفسه الحساب مع كل فرد ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وبعد الحساب تُعلن النتائج وتوزع الشهادات ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

فينطلق الناجون إلى الجنة ليتنعموا فيها بالملك والخلد ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢٠]. ويساق الراسبون إلى النار حيث الحبس والعقوبة الأليمة ﴿ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

القرآن وقصة الوجود:

ولقد أفاض القرآن في تذكيرنا بقصة الوجود، وأخبرنا بما سيحدث لنا، وصوّر يوم القيامة بمشاهده العظيمة، ووصف لنا الجنة والنار وصفًا دقيقًا.. كل ذلك ليزداد تشميرنا وتنافسنا للفوز بالجنة والنجاة من النار.

إن دوام تذكر يوم الحساب من شأنه أن يُغير حياة الناس، ويجعلهم دائمًا فى خوف ووجل، ويهّون فى أعينهم الدنيا، فتخرج من قلوبهم ويتعاملون معها كما يريد الله عز وجل فيجعلون منها مزرعة للآخرة.

ستصبح تصوراتنا حول مفردات الدنيا من رزق وزوجة وأولاد ومستقبل.. معتدلة، فلن نتصارع من أجل جمع المال، وسنعمل على تأمين مستقبل الأولاد الحقيقى هناك فى الجنة، وسنجعل شعارنا قوله تعالى: ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ [القصص: ٧٧].

والملاحظ أن من أهم مداخل الشيطان على الناس إغفالهم عن يوم الحساب ليسهل عليه إضلالهم بعد ذلك، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾ [ص: ٢٦].

لذلك أعطى القرآن لقصة الوجود، ويوم الحساب، والوعد والوعيد مساحة كبيرة لتكون لنا عونًا على دوام تذكرنا فلا نُفاجأ بالموت دون أن نستعد له، وذكر لنا كذلك نماذج للإجابات الصحيحة من المؤمنين على مر العصور لتكون لنا مثالاً نحتذى به ونحن نسير فى الدنيا، ونتقلب فى مواد امتحانها.

قال تعالى: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٣، ٧٧].

ومع هذه النماذج الطيبة يعرض لنا القرآن كذلك صوراً للإجابات الخاطئة لنتجنب تكرارها والقيام بمثلها.

منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [القلم: ١٧- ٢٧].

والأمر اللافت للانتباه أن القرآن كثيراً ما يصف الدنيا بأوصاف منفّرة، مع بيان حقيقتها، لتخرج من قلوب الناس ولا يتعلقوا بها، فحب الدنيا رأس كل خطيئة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقوله: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦].

الجانب السادس

معرفة السنن والقوانين الحاكمة للكون والحياة

ما من ملك أو رئيس لدولة إلا ويحكم شعبه من خلال قوانين تنظم حياتهم، وتعرّفهم حقوقهم وواجباتهم.. والفرد الذى يريد العيش فى سلام عليه أن يعرف هذه القوانين جيداً حتى يقوم بواجباته ويطالب بحقوقه..

هذا مع البشر، وفى حيز ضيق فكيف بمالك الملك.. رب الأرض والسماء؟!

وكيف بمن حرّم الظلم على نفسه؟! وكيف بمن جعل قيام السموات والأرض بالحق؟

قال تعالى: ﴿ **وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ [الجاثية: ٢٢].

فقيام السموات والأرض بالحق يعنى ضمن ما يعنى: تسييرها بنظام لا يتغير، ولا يتبدل وهو ما يعرف بالسُنن، قال تعالى: ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ [فاطر: ٤٣]، فالله عز وجل ينظم الحياة على الأرض بقوانين تسرى على الجميع.. هذه القوانين تنقسم إلى قسمين: مادية واجتماعية.

القوانين المادية:

فالقوانين المادية تلك التى تنظم حركة المادة فى الكون.. كتبدل الليل والنهار، والفصول الأربعة، وكحركة القمر الشهرية، والأطوار التى يمر بها الجنين فى بطن أمه.

قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ** ﴾ [المرسلات: ٢٠- ٢٣].

ومنها أيضًا وظائف أعضاء الجسم حيث الحركة المنضبطة للسوائل، والهرمونات، والأجهزة المختلفة كجهاز المناعة، والتنفس، والتمثيل الغذائى، والإخراج، والدورة الدموية.. كل هذه الأشياء تتحرك وفق نظام لايتغير بتغير رغبة الناس وأمزجتهم، يقول تعالى: ﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ** ﴾ [المؤمنون: ٧١].

هذا بالنسبة للقوانين المادية والتى لا يختلف على وجودها اثنان، بل لقد استطاع الكثير من الكفار أن يستفيدوا منها أكثر من المسلمين لسعيهم الدءوب لاكتشافها، والانتفاع بها، وذلك لأن الله عز وجل قد جعل الأرض سواء للسائلين، فمن أحسن سعيه، واجتهد فى اكتشاف قوانينها وصل إلى كنوزها التى أودعها ربها فيها:

قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ** ﴾ [فصلت: ١٠].

القوانين الاجتماعية:

أما القوانين الاجتماعية فهى القوانين التى تنظم حياة الناس وينتج عنها سعادتهم أو شقاؤهم، وهى كالمادية لا تتغير ولا تتبدل، وتنطبق على الأفراد كما تنطبق على الأمم، ومعرفتها من الأهمية بمكان لتحقيق السعادة للفرد، والريادة للأمة الإسلامية.

ونظراً للدور الخطير الذى تقوم به هذه القوانين فلقد أكثر القرآن من ذكرها، وأعطى نماذج كثيرة من تطبيقاتها.

ومن هذه القوانين:

تبديل النعم وسلبها، قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأنفال: ٥٣].

ومنها المحافظة على النعم: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومنها قوانين النصر: ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [محمد: ٧].

ومنها نزول البلاء بالناس: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى: ٣٠].

ومنها عقوبة الظلم: ﴿ **ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

ومنها قوانين التيسير: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ** ﴾ [الليل: ٥-٧].

ومنها قوانين التعسير: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ** ﴾ [الليل: ٨-١٠].

وغيرها من القوانين التى تضمنها هذا الكتاب المبين: ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام:٣٨].

البداية من العبد:

الملاحظ فى القوانين الاجتماعية أن هناك قاسمًا مشتركًا بينها، وهو أن البداية التى تستدعيها لابد أن تكون من الفرد، فهى كالمعادلات الرياضية إذا اكتمل الطرف الأول منها تحقق الطرف الثانى.. فالهدى والضلال، والسعادة والشقاء، والتوفيق والخذلان، وانشراح الصدر وضيقه، والنصر والهزيمة.. كل هذه الأمور لا تصيب العبد إلا إذا كانت منه بداية تستدعيها، فالله عز وجل لا يظلم أحدًا: ﴿ **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

وهو كذلك لا يحابى أحدا ولا يكرمه إلا بمقدار استقامته وتقواه، قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأنعام:٨٨].

إنها قوانين تطبق على الجميع أفرادا ومجتمعات، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا** ﴾ [النساء: ١٤٤].

فالآية تقول للمؤمنين: إنكم حين توالون الكافرين تستوجبون على أنفسكم تطبيق سنن الله فيكم.. من هنا يتضح لنا أن إدراك السنن والقوانين التى يحكم الله بها الحياة، وفهمها، وإسقاطها على الواقع الذى نحياه لابديل عنه لكل من يريد العيش الآمن والسعيد لنفسه فى الدنيا والآخرة، ولمن يريد كذلك العزة والرفعة لأمته.

القرآن دستور حياة:

لأن القرآن كتاب هداية فلقد أفاض فى ذكر السنن والقوانين التى تحكم الحياة، وبخاصة الاجتماعية منها لتوقف سعادة الناس عليها. قال تعالى: ﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

ولم يكتف القرآن بذلك بل ضرب الكثير من الأمثلة التطبيقية لهذه القوانين ليزداد يقين الناس بها.

قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٣، ٥٤].

ويوضح لنا القرآن كذلك أن للسنن والقوانين وقتًا محددًا للعمل، فالله عز وجل لايعجل بعجلة أحد، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [طه: ١٢٩].

ومن أشكال الهداية القرآنية في هذا الجانب: تعريف الناس بكيفية استبدال القوانين وإيقاف عملها. قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨].

فقوم يونس عندما سارعوا بالتضرع إلى الله، والتوبة إليه، أوقف سبحانه وتعالى العذاب الذي كان قد حاق بهم.

الجانب السابع

التعرف على الكون المحيط

نحن فى هذا الكون لا نعيش بمفردنا بل هناك عوالم أخرى كثيرة تشترك معنا فى الوجود.. منها ما هو مشهود لنا ومنها ما هو غائب عنا، والقرآن الكريم يعرفنا على هذه المخلوقات وعلى طبيعة العلاقة التى تربطها بنا، وكيف نتعامل معها.

فتخبرنا الآيات مثلاً بوجود الملائكة، وأن منها الحفظة، ومنها من يقومون بتسجيل أعمال العباد، ومنها الملائكة السيارة، وحملة العرش... قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ**﴾ [الانفطار: ١٠، ١١].

ومما لا نراه أيضًا: عالم الجن، ويُخبرنا القرآن بأنهم مكلفون مثلنا تمامًا، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦].

كون مُسخر:

هذا بالنسبة لعالم الغيب، أما عالم الشهادة فنحن نرى الكثير من المخلوقات فى عالمنا، فما سبب وجودها وما وظيفتها؟!

يخبرنا القرآن بأن الله قد خلق جميع ما على الأرض من مخلوقات من أجلنا.. يقول تعالي: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ [البقرة: ٢٩].

وجعلها مسخرة لنا، لا تمتنع عنا، ولا ترفض استخدامنا لها.. فالماء مسخر للإرواء والإطفاء وكمادة حياة، والنار للتدفئة والإضاءة والإحراق، والنبات لإخراج الثمار، ولإشاعة روح البهجة فى نفوسنا، ولنستظل به، والمعادن تستجيب لتعاملنا معها... الأنعام مسخرة لركوبها وأكل لحمها، وشرب لبنها... وكل ما فى جسم الإنسان من عضلات وأجهزة وغدد وعمليات حيوية مسخر له كذلك.

الليل والنهار والشمس والقمر، وكل ما فى الأرض يعمل من أجلنا... كل ذلك لنتفرغ لأداء المهمة التى خلقنا من أجلها، يقول تعالي: ﴿**اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الجاثية ١٢، ١٣].

هذا الكون المسخر لنا أودع الله فيه الكثير من آثار أسمائه وصفاته، وجعلها تدل عليه سبحانه وتعالى، ودعانا إلى السير فى الأرض، والتأمل فى مخلوقاته، واكتشاف أسرارها لتزداد معرفتنا به، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [الجاثية: ٣-٥]. إنه كون ينتظر فتحنا، واكتشافنا له.. مئات الأنواع من الطيور التى خلقها الله عز وجل تبحث عمن يكتشف أسرارها ويتعرف على الله من خلالها، الأشجار المختلفة، والكائنات العجيبة ما خلقها الله عبثًا ولا سدى، قال تعالى: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** ﴾ [يوسف: ١٠٥].

والقرآن يحثنا فى مواضع كثيرة على النظر فى آيات الله فى الكون، والعمل على فهم الرسائل التى تحملها لنا: ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [يونس: ١٠١].

الكون العابد:

ومع تسخير المخلوقات وما تحمله من رسائل إلينا، فإنها أيضًا تشترك معنا فى العبودية لله عز وجل تسبحه، وتسجد له، قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ** ﴾ [الحج: ١٨].

الكل يسبح لله ﴿ **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ﴾ [الجمعة: ١].

إنه كون يغار على حرمات الله، ويغضب لانتهاكها ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا** ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩١].

هذه العلائق المتعددة مع الكون لن نستطيع أن ندرك معانيها، ولا أن نحقق مدلولاتها إلا من خلال القرآن... ولعل ما يؤكد هذا الأمر قول الرسول ﷺ عندما نزل عليه قول الله عز وجل: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، قال: «**ويل لمن قرأ هذه الآيات ثم لم يتفكر بها**» (١).

(١) رواه ابن حاتم وابن حبان فى صحيحه.

الجانب الثامن

حقوق العباد بعضهم على بعض

المتأمل للمعاملات التى تجرى بين الناس يجدها لا تخرج عن ثلاثة أقسام:

عدل أو ظلم أو إحسان.

أما العدل فهو إعطاء كل صاحب حق حقه دون زيادة أو نقصان.

وأما الظلم فهو حرمان ذى حق من حقه، والاحتفاظ بالامتيازات.

وأما الإحسان فهو نقيض الظلم ويعنى الفضل والزيادة، بمعنى أنك تعطى أحداً أكثر من حقه عليك.

فعلى سبيل المثال:

دفع الظلم ورده عن صاحبه: عدل لا شئ فيه، أما العفو والصفح عن الظالم فإحسان يثاب عليه فاعله.

قال تعالى: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾ [الشورى: ٤٠– ٤٣].

الشريعة رحمة كلها:

ولأن الشريعة الإسلامية التى شرعها الله لعباده رحمة كلها كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

لذلك نجد القرآن كثيراً ما يحذر من الظلم وعاقبة الظالمين، ويعرض الصور المختلفة للظلم ليجتنبها الناس.

مثل قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾ [النساء: ١٠].

ولا يكتفى القرآن بذلك، بل إنه كثيراً ما يتحدث عن فضل الإحسان ليستثير المشاعر، ويولد الرغبة، ويقوى العزيمة بصوره وأشكاله.

فلقد أخبر سبحانه وتعالى فى كتابه أنه يحب المحسنين.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وأن رحمته سبحانه قريبة منهم: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ويذكرنا بأن مردوده سيعود على صاحبه، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، وأن معيته - سبحانه - ستكون للمحسنين: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وجعل الإحسان طرفًا تنعقد به العروة الوثقى مع الطرف الآخر وهو الاستسلام التام لله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

من فوائد الإحسان:

فإن قال قائل: ولماذا جعل الله الإحسان بين الناس بهذه المنزلة؟!

مما لا شك فيه أن هناك فوائد كثيرة تعود على الفرد وعلى المجتمع إذا ما شاع الإحسان بين الناس.

فعلى مستوى الفرد، فالإحسان قادر على علاج شح النفس وأثرتها، والشح كما نعلم مفتاح كل شر، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وليس الشح مقصوراً على الشح بالمال ولكن له أوجه كثيرة كالشح بالوقت والجهد والنصيحة.

أما على مستوى المجتمع فبالإحسان يتحقق مفهوم الجسد الواحد والأمة الواحدة. فلو انشغل كل منا بنفسه فقط ما تعلم متعلم، ولا سارع أحد فى نجدة ملهوف أو خدمة محتاج، ولا ذهب مسلم إلى مريض ليعوده، أو جار ليزوره أو لمتخاصمين ليصلح بينهما، وما اشتغل أحد بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله، فيؤدى ذلك إلى تفشى الأمراض الاجتماعية فى المجتمع وانهيار أركانه، فالإحسان إذن ضرورى لتحقيق السعادة للفرد والمجتمع.

وصور الإحسان فى القرآن كثيرة، منها:

الإحسان إلى الوالدين وبخاصة عند بلوغهما الكبر واستغناء الابن عنهما ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا**﴾ [الإسراء: ٢٣].

والإحسان إلى ذوى القربى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ٩٠].

والإحسان لابد أن يظلل حياة الزوجين: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ [النساء: ١٩].

وفى حديث الناس مع بعضهم: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الإسراء: ٥٣].

بل وفى الجدال أيضًا إحسان ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥].

ويرغب المولى عباده فى القيام بواجب الدعوة إليه، فيخبرهم بأنها أحسن الأقوال: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [فصلت: ٣٣].

وليس الإحسان فى القول فقط بل فى الخلق والمعاملات بين الناس أيضًا، قال تعالى: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وأرشدنا الله سبحانه وتعالى إلى أن الطريق السهل لإنهاء الخصومة هو الإحسان: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ [فصلت: ٣٤].

وليس الإحسان فى الفعل فقط، بل فى الترك أيضًا، فالله عز وجل أخبر أنه لا يحب من كان مختالا فخوراً، قال تعالى: ﴿**وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ [لقمان: ١٨].

والمتتبع لهذا الجانب فى القرآن سيجد آيات كثيرة تحدد له كل ما يحبه الله عز وجل، وما يبغضه فى علاقته بالناس بصفة عامة وبالمؤمنين بصفة خاصة.

الجانب التاسع

فقه الدعوة إلى الله

الإسلام هو دين الله الخاتم للبشرية جمعاء، والقرآن الكريم هو كتاب هذا الدين جاء مصدقًا لما سبقه من كتب وناسخًا لشرائعها ومهيمنًا عليها ،كما قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [المائدة: ٤٨].

هذا الكتاب المعجز أنزله الله عز وجل على الناس، وجعله ناطقًا بالحق: ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فصلت: ٤٢].

وكما أشرنا سابقًا فإن الهدف الأساسي من نزوله هو هداية الناس إلى الله، وإلى صراطه المستقيم، واستنقاذهم من طريق الضلال، فمن بحث فيه عن الهدى وجده، ومن شك فيه فما عليه إلا أن يقرأ الكتب السابقة التي بين أيدي الناس ليعرف الفارق الكبير بينها وبين القرآن، وليتأكد لديه أنه من عند الله.

فإن كان الأمر كذلك فلماذا لا يؤمن الكثير من الناس بالله وبدينه؟!

هذا سؤال يجيب عنه القرآن في عدة مواضع، ويبين لنا أن ابتعاد الناس عن الحق له سببان لا ثالث لهما: إما جهل بهذا الحق، وإما هوى في قلوبهم يمنعهم من الإذعان له قال تعالى: ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ**﴾[القصص: ٥٠].

لذلك كانت أهمية الدعوة إلى الله لإنقاذ هؤلاء الذين يجهلون الله سبحانه وتعالى، ولقد رفع الله عز وجل من شأنها وجعلها من أعظم ما يتقرب به العبد إليه. قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [فصلت:٣٣].

ولكن كيف يشخص الداعية حالة من يدعوه، وهل هو من الذين يجهلون الحق أو يجحدونه؟!

إنه أمر صعب لا يستطيع أحد أن يصل إليه، لذلك جعل سبحانه وتعالى دور الداعية بل الرسول عليه الصلاة والسلام البلاغ والإنذار، قال تعالى: ﴿**إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ**﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٤].

فليس لأحد أن يرغم أحداً على الدخول فى الدين كما قال تعالى: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ ولكن المطلوب أن يبين له طريقى الحق والضلال: ﴿ **قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولقد خاطب الله عز وجل نبيه عليه الصلاة والسلام بألا يحزن على عدم إيمان هؤلاء المعرضين: ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [الشعراء: ٣].

فهم لا يريدون الهداية: ﴿ **فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴾ [التغابن: ٦].

وعندما انشغل ﷺ ببعض من هؤلاء المعرضين عن الهداية، وترك آخر يسعى من أجلها عاتبه الله عز وجل بقوله: ﴿ **أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ** ﴾ [عبس: ٥ – ١١].

لماذا يثيرون الشبهات؟

عندما يتمكن الهوى من القلب فإنه يعمل على إغلاق سمع وبصر صاحبه تجاه الحق، بل يدفعه إلى إثارة الشبهات حوله، ليظهر صاحب الحق بمظهر العاجز المهزوم، وينتفش الباطل، ويجد أهل الأهواء لأنفسهم مبرراً لاستمرارهم على ما هو فيه.

وما من دعوة لله عز وجل قامت إلا وعمل أصحاب الأهواء على إثارة الشبهات حولها، تأمل معي ماذا قالوا عن رسول الله ﷺ: ﴿ **وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ۝٨ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً** ﴾ [الفرقان: ٧–٩].

ثم تأمل ما قال الله سبحانه وتعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام، وكيف بين له دافعهم من وراء هذه الشبهات، قال تعالى: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ۝١٠ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً** ﴾ [الفرقان: ١٠، ١١].

صور الهدى:

بين القرآن الصور المتعددة لتمكن الهوى من القلب... فالخوف على الرزق وعلى الحياة قد يسيطر على الإنسان ويمنعه من قبول الحق.

قال تعالى: ﴿ **وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾ [القصص: ٥٧].

والرغبة فى التمتع بالشهوات والفجور دون ضابط ولا رقيب من صور الهوى كذلك.

قال تعالى: ﴿ **بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ** ﴾ [القيامة: ٥، ٦].

ومن صوره أيضًا حب العلو فى الأرض، قال تعالى: ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ﴾ [النمل: ١٤].

متى نرد على الشبهات؟:

هناك شبهات يعرضها بعض المبطلين تحتاج إلى بيان شاف.. نعم هذا البيان لن يؤثر فى أهل الأهواء، لكن هناك قطاعًا عريضًا من الغافلين قد تؤثر فيه هذه الشبهات فيعرض عن الحق، لذلك حرص القرآن على تفنيدها.

فدحض الشبهات له دور كبير فى زيادة إيمان المؤمنين، وذهاب الشك عن المترددين.

ومن صور الشبهات التى يرددها المكذبون قديمًا وحديثًا أن الكون ليس له خالق، بل إن الطبيعة أوجدته، ومنها أن هناك أكثر من إله في الكون، وأن لله ولدًا وزوجة – تعالى سبحانه عن ذلك علوًا كبيرًا – أو أن القرآن ليس من عند الله، وأن محمدًا ﷺ ليس برسول، أو أنه يستحيل أن يكون هناك بعث بعد الموت، ومنها كذلك أننا مجبرون على ما نقوم به من أفعال أو ..... والقرآن حين يرد على هؤلاء تجد رده ردًا قويًا مفحمًا يشرح صدور المؤمنين ويزيل الشك عن المترددين.

تأمل قوله عز وجل: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ [هود: ١٣، ١٤].

وفى قضية البعث: ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ** ﴾

نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٨-٨٣].

وفى مسألة إثبات عبودية البشر لله عز وجل وأنهم مقهورون بقضائه وقدره، فى الأمور الكونية وليس فى الأمور الشرعية، يقول تعالى: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧].

وفى القرآن مواضع كثيرة تفند الشبهات، وتكشف الدوافع من وراء إثارتها.

هذا الجانب عندما يتتبعه الواحد منا فى تلاوته للقرآن فإن من شأنه أن يزيده إيمانًا ويقينًا وعزة بهذا الدين، ويعلمه كذلك فقه الدعوة، وكيف يتعامل مع أصناف الناس، وكيف يستقبل شبهاتهم، ويصبِّره على ما يلاقيه من تكذيبهم.

قال تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

الجانب العاشر

العبرة من قصص السابقين

القرآن مليء بقصص السابقين من المؤمنين والكافرين، بل إن المساحة التى يفردها لهذه القصص من أكبر المساحات فيه، وهذا يعنى أول ما يعنى أنه ينبغى علينا أن نوليها قدراً كبيراً من اهتمامنا.

قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يوسف: ١١١].

فكل قصة ذكرت فى القرآن للصراع بين الحق والباطل لها عبر ودروس مستفادة من شأنها أن تثبت قلوب المؤمنين، وتهون عليهم مصاعب الطريق، وتشعرهم بأنهم حلقة مكررة من حلقات التاريخ البشرى، وأن ما يحدث لهم ليس بدعاً. قال تعالى: ﴿ **وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [هود: ١٢٠].

كيف نستخلص العبرة؟!

إن المتأمل فى قصص السابقين يجد فيها تطبيقاً عملياً لجوانب الهداية التسعة السابق ذكرها – فيما نرى –، فمن خلالها نرى آثاراً لأسماء الله وصفاته كالقوى، المنتقم فى قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ [الفجر: ٦– ١٤].

وصفات العزيز القهار فى قوله تعالى: ﴿ **وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٧٠].

وآثاراً لصفة القدير كقوله تعالى: ﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا** ﴾ [مريم: ٨، ٩].

ومن خلالها نتعرف على الإنسان عندما يطلق الزمام لنفسه ولا يجاهدها أو يزكيها، مثل قوله تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ﴾ [المائدة: ٣٠].

- ومن جوانب الاعتبار فيها البحث عن دور الشيطان وكيف أضل الكثير من الناس عبر التاريخ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٤٨].

- ونتذكر من خلالها قصة وجودنا، ولماذا أتينا إلى الدنيا وطبيعة الامتحان فيها، ففى قصة قارون نرى مثالاً للمرء المخدوع فى ماله وسلطانه، وعندما نصحه الناصحون بأن هذا ابتلاء من الله وليس دليل كرامة قال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾... فماذا حدث له؟ ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١].

وفى قصة سليمان عليه السلام نرى مثالاً للمؤمن الذى يتعامل تعاملاً صحيحًا مع كل ما يستقبله من عطاء الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠].

- ومن قصص السابقين يتأكد لدينا واجبات العبودية لله عز وجل؛ كالاستغفار والتوكل كمثل قوله تعالى: ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٥٢]، وقوله: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ [هود: ٥٦].

- وكذلك حقوق العباد بعضهم على بعض، كقوله تعالى: ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ [الشعراء: ١٨١، ١٨٢].

- ونرى فيها القوانين والسنن الإلهية وهى تطبق فى الوقت المناسب الذى حدده الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود: ٧٤-٧٦].

– وفى قصص السابقين تطبيق عملى للسنن الاجتماعية التي يحكم الله بها الحياة . . . تأمل قول الله عز وجل وهو يعرض لنا سنة من سننه : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنفال : ٥٣]، ثم يعطينا سبحانه وتعالى نموذجًا من قصص السابقين كتطبيق عملى لهذه السنة فى الآية التى تليها مباشرة، قال تعالى : ﴿ **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ** ﴾ [الأنفال : ٥٤] .

– ومن خلال تدبرها نكتشف أن الشبهات التى يثيرها المكذبون متشابهة على مر العصور، مثل قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ** ﴾ [القصص : ٤٨] .

– وفى قصص السابقين نستشعر بأن الكون يتفاعل معنا؛ فتبكى السماء والأرض على موت الصالحين، ولا تبكى على موت الظالمين : ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ** ﴾ [الدخان : ٢٩] .

وكأننا نسمع النملة التى تتحدث مع أخواتها من النمل، فيسمعها نبى الله سليمان عليه السلام، ونتجاوب مع الهدهد الذى اشتدت غيرته على دين الله عندما رأى قومًا يسجدون للشمس من دون الله .

سؤال وجواب :

بعد انتهاء الحديث عن الجوانب العشرة للهداية الربانية يبقى سؤال يحتاج إلى إجابة وهو : هل القرآن لا يحتوى إلا على هذه الجوانب العشرة التى ذكرت . . وهل من الممكن أن نضيف إليها جوانب أخرى؟

نعم . . يمكننا ذلك، فليس معنى ما قيل فى الصفحات السابقة هو حصر الهداية فى هذه الجوانب العشرة فقط، فمن وجد جانبًا أو أكثر يمكن إضافته لما سبق فليفعل، والله المستعان .

الفصل الثالث

القرآن والتغيير

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف :٢، ٣].

فى هذه الآيات تحذير شديد للمؤمنين من مخالفة فعلهم لقولهم.

والمشاهد لأحوالنا يجد أن الحال يختلف عن المقال، فالكثير يتكلم وينصح والقليل من تتمثل فيه هذه الأقوال والنصائح.. الكل يريد أن تكون أفعاله على مستوى أقواله لكنه لا يستطيع، فإن تكلف ذلك فترة من الزمن فسرعان ما يعود إلى سابق عهده.

وليس معنى هذا عدم مطابقة الفعل للقول بالكامل، فهذا هو حال المنافقين والعياذ بالله، وإنما المقصد هو وجود بعض السلوكيات الخاطئة التى تتنافى مع ما يحبه الله ويرضاه.

أمثلة من الواقع:

نحن كثيراً ما نتحدث عن الأولاد أنهم هبة من الله عز وجل، وليس بيد أحد من الناس اختيار نوع المولود، فإذا ما رُزق البعض منا بأنثى شعر بالضيق فى صدره، فإذا ما تكرر ذلك ازداد ضيقه، والذى قد يدفعه إلى اتهام زوجته بأنها السبب فى ذلك.

ومن صور التناقض بين القول والفعل أيضًا أننا نتكلم عن ضرورة المساواة بين الأبناء ويفعل بعضنا عكس ذلك.

ونتكلم كذلك عن ضرورة الإحسان إلى الزوجة ومعاشرتها بالمعروف، ونتبارى فى إلقاء الكلمات المعبرة عن ذلك، وإذا بشكاوى الزوجات من سوء معاملة أزواجهن تصم الآذان.

نتحدث كثيراً عن حقيقة الدنيا وأنها دار ارتحال وليست دار مقام، فلن يأخذ الإنسان – أى إنسان – شيئًا معه عند خروجه منها، ثم تجد منا الحرص على التملك فيها، واللهفة على تحصيل أكبر قدر منها، وكأننا لن نغادرها.

... وغير ذلك من الأمثلة التى تكشف حجم الهوة بين الواجب والواقع، والقول والسلوك.

أين القدوة؟

إذن فنحن أمام مشكلة السلوك الخاطىء وندرة وجود الشخص القدوة الذى يقترب فعله من قوله، فضلاً عن أن يتطابق معه.

وقبل أن يشرد الذهن باحثًا عن حل لهذه المشكلة لابد من معرفة أسبابها... هذه الأسباب تدور فى مجملها حول النقاط التالية:

١- الأفكار والمعتقدات الخاطئة التى ترسبت فى عقل الفرد على مر السنين، وأصبحت من الثوابت التى تُشكل المنطلق الأول للسلوك.

٢- غياب الفهم الصحيح للإسلام والذى قد يؤدى إلى تضخيم فرع من الفروع على حساب أصل من الأصول.

٣- ضعف الإيمان: فالإيمان هو الدافع للأعمال الصالحة وعلى قدر وجوده فى القلب يكون حجم تلك الأعمال.

٤- عدم جهاد النفس على لزوم الصدق والإخلاص: فقد يقوى داعى الإيمان فى القلب وينتصر على داعى الهوى، ويقوم المرء بأداء ما يأمره به إيمانه، لكنه لا يستفيد من تلك الأعمال ولا يصل أثرها إلى القلب، بل تتعرض للإحباط وعدم القبول من الله، وذلك بسبب أن النفس تريد أن تأخذ حظها من تلك الأعمال، إما بدفع صاحبها للإعجاب والاغترار بها واعتبار أنها السبب فى القيام بهذه الأعمال، أو بدفعه للتحدث بها وتزيينها أمام الناس، وكلا الأمرين يؤديان - والعياذ بالله - إلى إحباط العمل.

المعجزة الكبرى:

إذن فلكى يُصبح الواحد منا ذا سلوك سوى، بفهم صحيح، وبصدق وإخلاص لابد أن يشمل التغيير عقله وقلبه ونفسه.

فإن كان الأمر كذلك فما هو المنهج القادر على إحداث هذا التغيير فى هذه المحاور الثلاثة، والذى ينبغى أن يكون ميسراً أمام الجميع؟!

... هنا يأتى دور القرآن العظيم وتظهر قيمة معجزته الكبرى.

فالقرآن لا يكتفى بتعريف الناس طريق الهدى، ولا يؤدى فقط دور المصباح الذى يشع النور فيبدد الظلمات، وينير طريق السالكين إلى الله، بل يقوم بنفسه بإخراج من يتمسك به من الظلمات إلى النور، وتغييره وإعادة تشكيله ليصبح عبداً مخلصاً لله فى كل أموره وأحواله.

وهذا هو سر معجزته والذى جعلها تتفوق على سائر المعجزات الأخرى كمعجزة عيسى – عليه السلام – فى إحياء الموتى ، أو عصا موسى، أو ناقة صالح...

قد يقول قائل: إن معجزة القرآن تكمن فى أسلوبه، وبلاغته، وتحديه للبشرية، وأنه صالح لكل زمان ومكان و...

... نعم هذا كله من أوجه إعجازه، ولكن يبقى سر إعجازه الأعظم فى قدرته على التغيير... تغيير أى إنسان، ومن أى حال يكون فيه، ليتحول من خلاله إلى إنسان آخر عالمًا بالله، عابدًا له فى كل أموره وأحواله، حتى يتمثل فيه قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

كيفية التغيير القرآنى:

الوسائل التى يستخدمها القرآن فى تغيير الفرد، وإحداث انقلاب جذرى وشامل فى كيانه تُصب فى محاور ثلاثة: العقل والقلب والنفس، وبقدر استخدام تلك الوسائل يكون التغيير، وفى ذلك تفصيل....

المحور الأول

القرآن والعقل

قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [النحل: ٧٨].
فالجنين يخرج من رحم أمه إلى الدنيا وهو لا يعلم شيئًا، ويبدأ تدريجيًا فى التعرف على العالم من حوله من خلال بيئته الصغيرة المحيطة به، ففيها يكتسب معارفه الأولية، وبمرور الأيام والسنين ومع اتساع دائرة حركته، وتنوع وسائل المعرفة التى يستقى منها معلوماته، تتكون لديه مجموعة من الثوابت والتصورات عن نفسه وعن كل ما يحيط به ويتعامل معه؛ مثل نظرته للمال، الدراسة، الزواج، الصداقة، القوة، الموت، عالم الغيب...

ومما لا شك فيه أن هذه التصورات تختلف من شخص لآخر باختلاف المشارب والبيئات والمنابع التى يستقى منها الفرد معلوماته، وعلى أساسها يتكون فكر الإنسان وثوابته الخاصة..

هذا الفكر وهذه الثوابت تُشكل المنطلق الأساسى للسلوك الخارجى، فالإنسان – أى إنسان – يتحرك من خلال قناعاته الشخصية، وإذا ما أردت تغيير سلوك شخص ما فعليك أولاً أن تبدأ بتغيير قناعاته تجاه ما تريد، أما إذا حاولت أن تقفز مباشرة إلى السلوك لتغيره دون أن تبدأ بالفكر فلن تصل إلى النتيجة التى ترجوها، وإن أبدى أمامك استجابة سريعة لأوامرك – وبخاصة إذا ما كان لك عليه سلطان– فإن هذه الاستجابة تكون وقتية لا تستمر طويلاً.

... لابد إذن من مخاطبة العقل وتغيير الفكر والمعتقد أولاً إذا ما أردنا تغيير السلوك.

تجارب عملية:

لبيان مدى تأثير القناعات والمعتقدات على سلوك الإنسان يقول د. مالك بدرى:

إن تأثير العوامل النفسية على الناحية الجسمية العضوية أمر بدهى يلاحظه الفرد فى حياته اليومية، فهو يضطرب وتزداد ضربات قلبه عند تلقيه أخباراً مفزعة أو مؤلمة، كما يحمر وجهه خجلاً وحياءً إن كان من أصحاب البشرة البيضاء.

ومن أهم الظواهر أيضًا تحسن الحالة الصحية الجسمية لكثير من المرضى عند تناولهم لحبوب وكبسولات لا تحتوى على أى مادة فعالة لكنهم يعتقدون أنها عقاقير مفيدة. فقد لا تحتوى الكبسولات إلا على قليل من السكر لكن الطبيب يؤكد للمرضى أنها ذات فائدة مضمونة.

وفى بعض الحالات يقوم الطبيب بحقن المرضى بمحلول الماء والملح بعد إيهامهم بأن هذه الحقن تحتوى على دواء ممتاز. وقد أثبتت الدراسات المتكررة بأن هؤلاء المرضى تتحسن حالتهم بدرجة واضحة تكاد فى بعض الأحيان أن تصل إلى مستوى أولئك الذين تلقوا عقاقير حقيقية.

ولقد ظهرت مئات المؤلفات التى تدعو لتحسين صحة الإنسان الجسمية بتغيير أفكاره ومشاعره وانفعالاته.. ذلك لأن الذى يشكل فكر الإنسان ونشاطه المعرفى ليس هو الأحداث والمثيرات التى يتعرض لها فى بيئته بشكل مباشر، بل الذى يؤثر بالفعل هو تقييمه وتصوراته لهذه الأحداث والمثيرات (١).

من هنا يتبين لنا أن الخطوة الأولى والأساسية لتغيير سلوك الإنسان هى تغيير فكره، وليس المقصد من تغيير الفكر تلك القناعة العابرة التى يبديها العقل نتيجة قراءة أو مناقشة، فهذا من شأنه أن يُحدث تغييرًا وقتيًا ينتهى مفعوله بغياب الفكرة من العقل، ولكن إذا ما أردنا تغييرًا مستمرًا فهذا أمر آخر يتطلب الحديث عن الشعور واللاشعور.

الشعور واللاشعور:

البعض منا يخاف من الظلام، فإذا ما ناقشته وجدته مقتنعًا بعدم وجود ما يبرر خوفه، لكنه مع ذلك يستمر كما هو، والناس يتحدثون عن العدل والمساواة ولكن عند التطبيق يظهرون بالقيم العشائرية...

فما السبب فى ذلك؟

السبب الرئيسى لهذا التناقض بين القول والفعل أن العقل يستقبل المعلومات بجزئه المدرك الواعى والذى يسميه العلماء بالشعور.. هذه المعلومات لن تستطيع أن تكون دافعًا مستمرًا للأعمال إلا إذا أصبحت علمًا راسخًا عند الإنسان، وانتقلت من منطقة الوعى والإدراك والشعور إلى منطقة اللاشعور أو العقل الباطن أو الأخفى على حد تعبير القرآن.

(١) التفكر من المشاهدة للشهود، د. مالك بدرى، ص (٥١).

قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧].

فالسر – كما يقول ابن عباس رضى الله عنه –: ما أسر ابن آدم فى نفسه، وأخفى ما خفى على ابن آدم مما هو فاعله (١).

فاللاشعور أو الأخفى هو منطقة العلم الراسخ اليقينى عند الإنسان، ومن خلاله تنطلق الأفعال بصورة تلقائية.

ولقد ضرب القرآن مثالاً لأناس اعتقدوا أنهم مصلحون، ولكن سلوكهم يدل على عكس ذلك.. لماذا؟

لأنهم يفسدون بطريقة تلقائية من اللاشعور.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ – ١٢].

والأمر الجدير بالانتباه كما يقول د. ميسرة طاهر أن حوالى ٦٠٪ من سلوكنا اليومى ومن أفعالنا وأقوالنا مصدرها (الأخفى).

ويستطرد قائلاً: والأدلة على وجود الأخفى كثيرة، منها: المخاوف الشاذة، فكثيراً ما نرى كباراً وصغاراً يخافون مما لا ينبغى الخوف منه كالأماكن المرتفعة، والقطط، فمثل هذه المخاوف لا يمكن أن نجد لها تفسيراً على مستوى العقل الواعى.

ومنها كذلك فلتات اللسان وهى الكلمات التى نتفوه بها دون إرادة منا، وعند اكتشاف الفرد لمثل هذه الفلتات فغالبًا ما يعتذر عنها، ويقول: لم يكن قصدى أن أقول هذا...

ومن مظاهر وجوده كذلك ألعاب الأطفال، فمن يراقب الأطفال يتأكد أنهم يخرجون من عقلهم الباطن كل ما يضايقهم ليصبوه على ألعابهم سواء بالحركات أو بالكلمات(٢).

ومن الأوقات التى تُظهر الأخفى بصورة جلية: لحظات الاحتضار حيث يكاد العقل المدرك أن يتوقف ليفسح المجال للأخفى ليعبر عما بداخله، ويظهر هذا بوضوح من خلال

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١١٤).

(٢) مجلة الإعجاز العلمى – العدد التاسع – صفر ١٤٢٢ هـ – ص (٢٣، ٢٤) بتصرف.

تباين استجابة المحتضرين لمن يلقنهم الشهادة، بل قد نجد الواحد منهم يردد ما كان يغلب على اهتماماته فى حياته.

جاء فى كتاب الداء والدواء لابن القيم: أنه قيل لرجل يحتضر: قل لا إله إلا الله، فجعل يهذى بالغناء، ويقول ابن القيم: وأخبرنى من حضر الشحاذين عند موته فجعل يقول: لله، فلس لله، حتى قُضى.

وأخبرنى بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده، وجعلوا يلقنونه (لا إله إلا الله) وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشترٍ جيد، هذه كذا، حتى قُضى [1].

علاقة العقل المدرك بالأخفى (أو علاقة الشعور باللاشعور):

ما من معلومة ترسخ فى اللاشعور إلا وتمر عليه من خلال الشعور أو العقل المدرك.. مع العلم بأن كل فكرة نعتقد بصحتها حتى لو كانت خرافة فإن اللاشعور يقبلها دون مناقشة، أما رسوخها فيه لتصبح يقينًا ومنطلقًا للفعل التلقائى فهذا يحتاج إلى تكرار مرورها إليه من العقل المدرك... وإليك بعض الأمثلة التى توضح ذلك الأمر:

عندما نتعلم أحكام تلاوة القرآن فنحن نتعلمها بالعقل المدرك، وبالمداومة على تطبيقها ترسخ هذه المعلومات فى اللاشعور، فيطبق المرء الأحكام دون تفكير فيها، وقد ينسى القارىء نص الحكم التجويدى ومع ذلك يستمر فى تطبيقه بصورة صحيحة.

والذى يتعلم قيادة السيارة فإنه يتعلمها بالشعور، ثم بالمداومة والممارسة ترسخ المعلومات فى اللاشعور مما يجعله يقود سيارته دون تفكير، وقل مثل هذا على الذى يتعلم الكتابة على الكمبيوتر والذى لا يستطيع فى البداية كتابة حرف دون النظر إلى مكانه فى لوحة الحروف، وشيئًا فشيئًا يستطيع الكتابة وهو ينظر إلى الآخرين.

إذن فتحول المعلومة من الشعور إلى اللاشعور وثباتها فيه يحتاج إلى تكرار التفكير فيها، واسترجاعها بين الحين والآخر وإلا تلاشى وجودها شيئًا فشيئًا.. فكم من أعمال ومهارات وأناشيد وجمل مأثورة تعلمناها فى الصغر ودخلت اللاشعور، ثم تلاشت منه أو كادت بسبب إهمالها وعدم استرجاعها كل فترة.

من هنا تأتى أهمية الممارسة العملية المتكررة المعبرة عن الأفكار التى نريد ترسيخها فى اللاشعور، ولعلنا نلمح هذا المعنى من تأكيد رسولنا ﷺ على أهمية المداومة على العمل – وإن قل – ليظل مدلوله راسخًا فى اللاشعور.

---

(١) الداء والدواء، ص (١٧٠، ١٧١).

عن عائشة – رضى الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**»(١).

القرآن واللاشعور:

مما سبق يتبين لنا أن من أسباب عدم مطابقة الفعل للقول هو ما ترسب لدى الإنسان فى عقله الباطن من أفكار ومعتقدات، والتى من الجائز أن يقتنع العقل المدرك بعكسها فى لحظة من اللحظات، لكنه عند التطبيق يصدر منه سلوك معبر عن يقينه ومعتقداته الراسخة لديه.

فعلى سبيل المثال لو ناقشت شخصًا ما فى قضية الرزق وأنه بيد الله عز وجل وقد ضمنه لنا، ولن تموت نفس حتى تستوفى رزقها، فستجد منه اقتناعًا تامًا بذلك، ولكن عند التطبيق فى معترك الحياة نجد أن الأمر يختلف حيث اللهفة والحرص على المال وكثرة التفكير فى المستقبل والخوف من الفقر...

إذن فالخطوة الأولى فى تغيير السلوك تبدأ بتغيير ما ترسب لدينا من أفكار ومعتقدات خاطئة واستبدالها بأفكار ومعتقدات صحيحة.

هذا التغيير – كما مر علينا – يستلزم ثلاثة أمور:

أولاً: اقتناع العقل المدرك بالأفكار الجديدة.

ثانيًا: تكرار مرور تلك الأفكار على العقل.

ثالثًا: ممارسة مقتضيات تلك الأفكار.

.. وهذا ما يفعله القرآن.

فالقرآن يعيد تشكيل العقل من جديد، ويصوب كل فكرة خاطئة لديه، ويبنى فيه اليقين الصحيح لكل الأفكار والمعتقدات.

ولكن كيف يتم ذلك؟!

المتأمل فى كتاب الله سيجد العديد من الوسائل التى يستخدمها فى ترسيخ المفاهيم الصحيحة فى اللاشعور، ومن أهم هذه الوسائل:

---

(١) متفق عليه.

أولا: الاقتناع:

فالاقتناع بالفكرة هو الخطوة الأولى فى طريق التغيير، حيث يسمح العقل المدرك بمرورها بعد ذلك إلى اللاشعور ليصبح السلوك المعبر عنها يصدر بطريقة تلقائية.

من هنا يبرز احترام القرآن للعقل ودوام مخاطبته وإقناعه بأهمية الفكرة المطروحة. والقارىء المتدبر للقرآن يجد المولى سبحانه وتعالى – وهو الكبير المتعال – يخاطب عقولنا ويبين لنا الكثير من الأمور التى من شأنها أن تقنعنا بما يريده منا، بل أنه سبحانه وتعالى يدعونا فى كتابه إلى استخدام عقولنا والتفكر فى كلامه كقوله تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، لنقتنع بما يحمله هذا الكلام من معان وأفكار، فينتقل ذلك كله إلى اللاشعور، ويترسخ فيه، لينطلق بعد ذلك السلوك المعبر عنها بصورة تلقائية.

فعلى سبيل المثال:

عندما يناقش القرآن قضية الوحدانية نلاحظ أنه – سبحانه وتعالى – لم يشأ أن يُخبرنا أنه إله هذا الكون، وأنه لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد فقط، بل ساق لنا الأدلة العقلية التى تبرهن لنا ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [الأحقاف: ٤].

ويرد القرآن على ادعاء النصارى بألوهية المسيح – عليه السلام – أو أمه، فيقول تعالى: ﴿ **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾ [المائدة: ٧٥].

ومن وسائل الإقناع التى يستخدمها القرآن: ضرب الأمثال، والتى تعتبر من أهم وسائل تبسيط المعلومة وربط الذهن بها، فالمعلم القدير – كما يقول جودت سعيد – هو الذى يقدم العلم للناس فى أمثلة تجعلهم يقتربون من الموضوع أكثر (١).

قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ [الزمر:٢٧].

---

(١) كن كابن آدم، ص(٨٥).

ومن أمثلة القرآن ذلك المثال الذى يبين خطورة الرياء، وعدم إخلاص العمل لله، وكيف سيكون حال صاحبه وهو يرى جهده وتعبه قد ضاع، في وقت هو أحوج ما يكون إليه.

يقول تعالى: ﴿ **أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** ﴾[البقرة: ٢٦٦].

ومن وسائل الإقناع كذلك:

استخدام الطريقة الاستنتاجية بطرح الأسئلة وترك الإجابة للعقل ليصل إلى المعنى المراد من ورائها، مثل قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ** ﴾ [الرعد: ٣٣].

وقوله تعالى ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ [ص: ٢٨].

ثانيًا: تكرار الموضوعات:

.. نعم إن الاقتناع بالفكرة هو الخطوة الأولى فى طريق التغيير، حيث تنتقل هذه الفكرة من العقل المدرك إلى اللاشعور، ولكنها لن تستقر فيه إلا إذا حدث لها تكرار وتكرار.

ولعلنا جميعًا نلحظ ذلك، فعندما يحدث اقتناع بفكرة ما فى لحظة من اللحظات تجد الواحد منا كثيراً ما يعبر عن هذا الاقتناع بعمل من الأعمال، كمن قرأ أو سمع عن أهمية مساعدة المحتاجين ثم وجد أمامه محتاجًا، ففى الغالب أنه سيتصدق عليه ولو بالقليل، هذا الفعل قد لا يتكرر من صاحبه ثانية إلا إذا استمر التذكير بأهميته بين الفينة والأخرى.

من هنا تبرز قيمة التكرار كوسيلة من وسائل بناء اليقين الصحيح والتى يستخدمها القرآن، فالمتتبع للموضوعات المطروحة فيه يجدها متكررة ومتشابهة، كما قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا** ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا** ﴾ [الفرقان: ٥٠].

وصرفناه أى كررناه بأساليب مختلفة..

ومن فوائد التكرار كذلك أنه يجعل القارئ فى حالة دائمة من التذكر واليقظة.

والموضوعات التى تتكرر فى القرآن كثيرة تقف على قمتها تلك الموضوعات التى تتناول جوانب الهداية فيه، والتى تم ذكرها فى الفصل السابق.

فالتعرف على الله عز وجل يحتل مساحة ضخمة فى القرآن، ولا تكاد تمر آية إلا وتجد فيها تعريف بالمولى سبحانه وتعالى وبحقوقه علينا من عبادات قلبية وجوانب تشريعية.

ومن الموضوعات التى تتكرر كثيراً فى القرآن: قصة وجودنا على الأرض، وطبيعة الدنيا وأنها دار امتحان ينتهى بيوم عظيم للحساب، تُعرض فيه الأعمال، وتُعلن النتائج، ليفوز الناجحون بالجنة التى أعد الله لهم فيها شتي أنواع النعيم، ويذهب الراسبون إلى النار فيذوقوا من ألوان العذاب.. أعاذنا الله منها.

ويحذرنا القرآن دومًا من عداوة الشيطان لنا وعمله الدائب لإضلالنا، ويكرر علينا السنن والقوانين التى يحكم الله بها الحياة لنتذكرها ونستفيد بها.

ويذكرنا القرآن كذلك بحقوق الناس بعضهم على بعض، ويكرر علينا قصص السابقين لتتأكد لدينا المعانى والعبر التى تحملها...

ثالثًا: رسم خريطة الإسلام:

من وسائل القرآن فى إعادة تشكيل العقل: رسم خريطة الإسلام بنسبها الصحيحة فى ذهن قارئه، فالقرآن يُعطى لصاحبه تصوراً عامًا لكل ما هو مطلوب منه، وعلاقته بكل شيء حوله، ولا يكتفى بذلك بل يضع كل أمر فى حجمه المناسب له فى شجرة الإسلام، فهو يرتب الأولويات، ويُكون الشخصية المعتدلة، المتوازنة، والتى تُعطى كل ذى حق حقه، فعلى سبيل المثال نجد قضية الجهاد فى سبيل الله قد أخذت مساحة معتبرة فى القرآن بل نجدها تتقدم فى الأولوية على عبادات أخرى عند تعارضها.

قال تعالى: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٩ – ٢٢].

فمن يترك عقله للقرآن، سيجد بلا شك أن شخصيته قد تشكلت بصورة متوازنة، وستتكون لديه ملكة معرفة الأهم فالمهم لكل قضية يطرحها القرآن، وستوضع فى ذهنه بالحجم الذى يتناسب مع اهتمام القرآن بها.

ولك أن تتخيل - أخى القارئ - ماذا يمكن أن يحدث لو اتجهت عقول الأمة إلى القرآن ليصبح هو المصدر الرئيسى للتلقى؟ وكيف ستكون نسبة الاتفاق بين أفرادها؟!...

وخلاصة القول أن القرآن يعيد تشكيل العقل، ويقوم ببناء اليقين الصحيح فيه من خلال مخاطبته له بأساليب شتى، مما يؤدى إلى إقناعه بما يحمل من أفكار فتنتقل تلك الأفكار بسهولة ويسر إلى منطقة اللاشعور، وتترسخ فيها من خلال تكرارها فى السور والآيات لتشكل بعد ذلك نقطة بداية قوية لانطلاق السلوك المعبر عنها....

والقرآن لا يركز على قضايا بعينها، بل يرسم فى الذهن خريطة شاملة وواضحة للإسلام، ويُعطى كل جزء فيها اهتمامًا يناسب حجمه، فينشأ عن هذا كله تصحيح للمفاهيم الخاطئة وتغيير للثوابت الموروثة، لتحل محلها معانى القرآن وثوابته، وهذا من شأنه أن يُحدث وحدة التصور لدى أفراد الأمة.

المحور الثانى

القرآن والقلب

.. نعم إن الاقتناع العقلى هو المنطلق الأساسى للسلوك، ومع هذا يبقى هذا الاقتناع بحاجة إلى رضا قلبى به لتنطلق الجوارح بالأفعال المؤيدة لما فى العقل من أفكار، فالعقل مهما كان وضعه إلا أنه فى النهاية ما هو إلا جندى من جنود القلب، فالقلب هو الملك، وما من عمل تقوم به الجوارح إلا ويمر من خلال القلب ويأخذ موافقته ورضاه عليه، كما قال تعالى:

﴿ **وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ** ﴾ [الأنعام: ١١٣].

فالسلوك يبدأ- كما توضح الآية- بإصغاء من القلب لصوت العقل ثم رضا بذلك لتكون النتيجة اقتراف الفعل..

وهذا ما يؤكده كذلك قوله تعالى: ﴿ **إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا** ﴾ [التحريم: ٤]، أى أنصتت قلوبكما لصوت العقل وارتضته فكانت التوبة.

فالاقتناع العقلى هو نقطة البداية التى لابد أن يتبعها إصغاء من القلب ثم رضًا منه بمقتضياته.. ولكن قد يقتنع العقل بقضية من القضايا لكن القلب لايستطيع أن يتخذ القرار بتنفيذ مقتضى هذا الاقتناع.. أتدرون لماذا؟!

لغلبة سلطان النفس وهواها وسيطرتها عليه، كما قال تعالى: ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ [القصص: ٥٠].

فما هو الهوى وما مدى علاقته بالقلب؟

القلب بين الإيمان والهوى:

من تعريفات القلب أنه مجموعة المشاعر والعواطف داخل الإنسان من حب وكره، وفرح وخوف ورجاء، والقلب كما نعلم هو الملك على سائر الأعضاء كما فى الحديث: « .. **ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب**»(١) ... هذا القلب يتجاذبه طرفان: إيمان وهوى.

(١) متفق عليه.

أما الإيمان فهو تصديق القلب لحقائق العقل، أو بمعنى آخر: اتجاه المشاعر لما قرره العقل من حقائق، فالإيمان محله القلب كما قال تعالى: ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٤].

والإيمان مشاعر كما في الحديث «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار**»(١).

وأما الهوى فهو اتجاه المشاعر لما تميل إليه النفس من شهوات حسية كانت أو معنوية.

وعلى قدر قوة أحد الطرفين- الإيمان أو الهوى- تكون له الغلبة على إرادة القلب، ومن ثم يكون من نصيبه الأمر الصادر من القلب للجوارح.

ففي الحديث: «**لايزني العبد حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولايقتل وهو مؤمن**»(٢).

فلحظات الزنى أو السرقة أو القتل عكست انتصار الهوى على الإيمان، وقوة سيطرته على المشاعر.

الإيمان أولاً:

إذن فعندما نرى سلوكًا معوجًا من شخص ما: كمن بدأ يتهاون في أداء الصلاة، أو من يطلق بصره إلى المحرمات، فإن هذا يعكس قوة سلطان الهوى على مشاعره، ومن ثم فإن الطريقة الصحيحة لتقويمه ليست بإنكار أفعاله فقط، فهو يعلم جيداً خطأ ما يفعل، وإنما تكون بالعمل على زيادة الإيمان في قلبه ليصبح هو الدافع للأعمال. وهذا ما نلحظه في قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾ [الحج: ٣٢].

وفي الدعاء: «**اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك**» (٣).

مرض القلب وصحته:

معنى مرض القلب أي عدم صحته، أو بعبارة أخرى اتجاه مشاعره نحو الهوى حتى يسيطر عليها، وبقدر هذه السيطرة يكون المرض، وعندما تتجه المشاعر كلها للهوى

---

(١) متفق عليه.

(٢) صحيح أخرجه الإمام في مسنده عن ابن عباس وصححه الألباني في صحيح الجامع ح (٧٧٠٨).

(٣) حسن. رواه الترمذي والحاكم عن ابن عمرو وأورده الألباني في صحيح الجامع ح (١٢٦٨).

يتمكن المرض من القلب وتنتفى عنه الصحة، ويصبح داعى الهوى هو الآمر الناهى المطاع، كما صور ذلك القرآن فى قوله تعالى: ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً** ﴾ [الفرقان: ٤٣].

وصور اتباع الهوى كثيرة، وتشمل كل ما تميل إليه النفس، ويجمعها قاعدة واحدة تنطلق منها وهى حب الدنيا.

فمن تلك الصور اتباع الشهوات، قال تعالى: ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** ﴾ [مريم: ٥٩].

ومنها طلب العلو فى الأرض: ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ﴾ [النمل: ١٤].

ومنها كذلك الخوف على الرزق والحياة. قال تعالى: ﴿ **وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَّعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾ [القصص: ٥٧].

وفى المقابل فإن عودة القلب إلى صحته تعنى تخلص مشاعره من سيطرة الهوى واتجاهها إلى الله عز وجل.

قال ﷺ: «**من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان**»(١).

القلب الحى:

عندما تتحرر المشاعر كلها من سلطان الهوى وتتجه إلى الله عندئذ يصبح القلب حيًا أبيض، يشع النور من جنباته، لا تضره فتنة مادامت السموات والأرض.. كما فى الحديث «**تُعرض الفتن على القلب كعرض الحصير عودًا عودًا، فأى قلب أُشربها نُكتت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نُكتت فيه نُكتة بيضاء حتى تعود القلوب على قلبين، قلب أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض لا تضره فتنة مادامت السموات والأرض**»(٢).

فإن استغل الشيطان منه غفلة، تذكَّر الله فعاد إلى ما كان عليه، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

---

(١) صحيح، رواه أبو داوود عن أبى أمامة وأورده الألبانى فى صحيح الجامع ح (٥٩٦٥).

(٢) رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان، مربادًا: أى يعلوه السواد، ومجخيًا: أى مقلوبًا.

وخلاصة القول أن التغيير المنشود يستلزم بالإضافة إلى إعادة تشكيل العقل: دخول الإيمان فى القلب، وتقويته فى مواجهة الهوى والعمل الدائم على زيادته حتى يسيطر تمامًا على المشاعر ليعيد القلب إلى كامل صحته وحياته.

فإن كان هذا هو المطلوب للقلب ليحدث التغيير المنشود فى السلوك، فكيف يمكن للقرآن أن يفعل ذلك؟!

القرآن ودوره فى دخول الإيمان القلب:

دخول الإيمان والنور فى القلب نعمة عظيمة من الله عز وجل، كما قال تعالى على لسان نبيه: ﴿ **قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ** ﴾ [سبأ:٥].

وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي** ﴾ [المائدة:١١١].

فالإيمان محض فضل من الله عز وجل يمنحه لمن يجد عنده الرغبة فيه ،كما فى الحديث القدسى: «**يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدونى أهدكم**»(١).

ومما لاشك فيه أن القناعة العقلية هى مبدأ هذه الرغبة.. هذه القناعة لابد لها أن تمتزج بميل قلبى وعاطفة تنتظر اللحظة المناسبة التى يمن الله فيها عليها. فتتوهج وينشرح صدر صاحبها للإيمان، قال تعالى: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ** ﴾ [الأنعام:١٢٥].

وهنا يأتى دور القرآن..

فمن أقبل على القرآن وهو يبحث فيه عن الهدى وجده... لماذا؟!

لأنه سيجد فيه ردًا شافيًا على ما يتردد فى عقله من تساؤلات حول قضية الوحدانية، وقصة الوجود وما بعد الموت و..

ولكن هذا كله لايكفى- كما ذكرنا- فالقناعة العقلية إن لم يصاحبها إصغاء قلبى فستظل حبيسة العقل، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ** ﴾ [الأنعام:٣٦].

---

(١) رواه مسلم.

وهنا يأتى الدور الآخر للقرآن ألا وهو قدرته على إثارة المشاعر وتأجيجها، فالقرآن ليس تذكرة للعقول فقط، ولكنه أيضاً موعظة تثير المشاعر والعواطف.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٥٧].

دور الموعظة:

الموعظة كالسياط تهز القلب، وتهيئه للإصغاء إلى صوت العقل فتنشأ الرغبة، ويزداد الشوق إلى الإيمان الذى يدخل نوره القلب فى الوقت الذى يحدده الله سبحانه وتعالى.

وهناك أمثلة كثيرة توضح قدرة القرآن على مخاطبة العقل وإثارة مشاعر القلب فى نفس الوقت، مما يهيئ سامعه للهداية إن استمر فى التعامل معه.

وإليك هذا المثال والذى نراه يتمثل فى أحد صناديد الكفر- عتبة بن ربيعة- الذى ذهب إلى رسول الله ﷺ ليحاوره، ويعرض عليه ترك دعوته ودينه مقابل ما يريد من مال أو جاه أو ملك.

فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن انتظر حتى فرغ من كلامه ثم تلا عليه صدر سورة فصلت حتى قوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ** ﴾ [فصلت: ١٣].

فلم يستطع عتبة أن يتحمل أكثر من ذلك فوضع يده على فى رسول الله ﷺ وناشده بالرحم أن يسكت، وعاد إلى قومه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد، قال: ورائى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله من قبل، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يامعشر قريش أطيعونى واجعلوها بى، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم(١).

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤ / ٨١).

والمتأمل للآيات التى قرأها رسول الله ﷺ على عتبة يجدها تخاطب العقل وتقنعه بوحدانية الله عز وجل وبملكه التام والمطلق لهذا الكون، وفى نفس الوقت فإن الآيات تثير المشاعر وتهز القلب وتخوفه، فينتج عن هذا امتزاج الفكر بالعاطفة، وهذا ما حدث لعتبة لكنه لم يستثمر الفرصة العظيمة التى سنحت له.

القرآن يمزج الفكر بالعاطفة:

إليك مثال آخر يوضح طريقة القرآن فى مزج القناعة العقلية بالعاطفة القلبية.

يقول تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة: ٢٣].

فهذا خطاب موجه للعقل يحمل تحديًا معجزًا ولكن هذا وحده لايكفى لحدوث الرضا القلبى، بل لابد من هز القلب، وإثارة مشاعره، وهذا ما نجده فى الآيات التالية للآية السابقة: ﴿**فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة: ٢٤، ٢٥].

فامتزاج الفكر بالعاطفة هو طريقة القرآن الفريدة فى تحويل وجهة القلب إلى الله عز وجل، لينتظر القلب بعد ذلك فضل الله سبحانه وتعالى فى إدخال نور الإيمان إليه.

القرآن وزيادة الإيمان:

مع دور القرآن العظيم فى دخول الإيمان إلى القلب فإنه يعمل كذلك على زيادته فيه وذلك من خلال ثلاث وسائل:

الأولى: أنه بنفسه يزيد الإيمان:

فكما مر علينا سابقًا أن من معانى الإيمان، اتجاه المشاعر إلى الله عز وجل.. معنى ذلك أن الإيمان يزداد فى لحظات التجاوب والانفعال القلبى لكل ماهو لله. والقرآن يقوم بذلك من خلال قدرته على التأثير فى مشاعر قارئه بمواعظه البليغة وسلطان ألفاظه وبخاصة عند ترتيلها والتغنى بها.

.. نعم فى البداية قد يكون التجاوب بطيئًا بين العقل والقلب، ولكن بالمداومة على القراءة مع يقظة الذهن سيزداد التجاوب والانفعال.. هذا التجاوب يعنى زيادة الإيمان فى القلب، وكلما استثمر الشخص لحظات التأثر بترديد الآية التى أثرت فيه: ازداد الإيمان فى قلبه.

الثانية: الطاقة المتولدة من القراءة:

فاستثارة المشاعر تولد طاقة فى نفس صاحبها، فإن استثمر تلك الطاقة بحسن تصريفها فى أعمال مصاحبة للقراءة كالدعاء أو السجود مثلاً: ازداد الإيمان أكثر وأكثر، وهذا ما نجده فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** ﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

فعندما ترجم هؤلاء الصالحون شعورهم عند استماعهم للقرآن بالسجود والبكاء، انعكس ذلك على القلب بزيادة خشوعه وخضوعه لله عز وجل.

الوسيلة الثالثة: الدلالة على أوجه البر:

فالقرآن يدل على أعمال من شأنها أن تزيد إيمانه كالصلاة والصيام وقيام الليل.

فعلى سبيل المثال نجد القرآن كثيراً ما يستحث القارئ على الإنفاق فى سبيل الله كقوله تعالى: ﴿ **فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الروم:٣٨].

فالإيمان كما نعلم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فإذا ما قام العبد بهذه الأعمال فإن أثرها يعود على القلب مرة أخرى بزيادة مساحة الإيمان فيه.

القرآن وشفاء القلب:

السبب الرئيسى لمرض القلب هو الهوى، وشفاؤه بالإيمان، وطريقة القرآن الفريدة فى شفاء القلب هو «الإحلال» بمعنى استخدام قوة الإيمان ليحل محل الهوى كما قال تعالى: ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ [الأنبياء:١٨].

ويضرب القرآن لنا مثلاً لهذه الطريقة فى العلاج، يقول تعالى: ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ**

زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد :١٧].

القرآن وحياة القلوب (الولادة الثانية) :

بالمداومة على قراءة القرآن ومع ازدياد فترات تجاوب القلب مع العقل :يزداد الإيمان شيئًا فشيئًا ويحل محل الهوى فى القلب، إلى أن تأتى لحظة من أجمل لحظات الحياة وهى تحرر القلب بالكامل من الهوى وولادته من جديد : قلبًا، حيًا، يقظًا، نابضًا يتحرك ويخشع، ويجده صاحبه معه عندما يريده.. هذه اللحظة السعيدة سماها العلماء «الولادة الثانية».

يقول ابن القيم: « فللروح فى هذا العالم نشأتان: إحداهما النشأة الطبيعية المشتركة والثانية نشأة قلبية روحانية، يولد بها قلبه وينفصل عن مشيمة طبعه كما وُلد بدنه وانفصل عن مشيمة البطن، ومن لم يصدق بهذا فليضرب عنه صفحًا وليشتغل بغيره.

وفى كتاب الزهد للإمام أحمد : أن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام قال للحواريين: « إنكم لن تلجوا ملكوت السماوات حتى تولدوا مرتين »(١).

وعندما تتم هذه الولادة، ويُولد القلب الحى، عندئذ تبدأ رحلته المباركة فى السير إلى الله للوصول إلى معرفته فى الدنيا، والقرب منه فى الآخرة.

القرآن والسير إلى الله :

كما أن لدى القرآن القدرة على تغيير سلوك صاحبه وذلك بالعمل المستمر على زيادة الإيمان فى قلبه وطرد الهوى منه، فإن لديه القدرة كذلك على السير به إلى الله والاقتراب الدائم منه حتى يصل العبد إلى درجة الصديقية، وهى الدرجة التى تلى الأنبياء فى القرب من الله عز وجل وذلك من خلال مايعرف بـ « أعمال القلوب ».

أعمال القلوب :

أعمال القلوب هى العبادات التى ينبغى أن يمارسها القلب عند تعرضه لأحوال معينة. فعندما يتوجه البدن بطاعة من الطاعات، كالصلاة أو الإنفاق ينبغى أن يصاحب ذلك عبادة قلبية تسمى الإخلاص لله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة :٥].

---

(١) مدارج السالكين (٣/١٤٦).

والعبودية التى ينبغى أن يكون فيها القلب عند ورود النعم عليه: الشكر لله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

والصبر هو عبودية القلب التى ينبغى أن تلازمه عند ورود المصائب أو الابتلاءات عليه، كقوله تعالى: ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ ﴾ [الحج: ٣٥].

والخشوع والخضوع والتواضع هى عبوديته عند ذكره لله عز وجل وتذكّر عظمته وكبريائه مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢].

وعبودية التوكل على الله والاستعانة به ينبغى أن تصاحب القلب قبل القيام بأى عمل مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والتقوى هى الحال التى ينبغى أن يكون عليها القلب بعد القيام بأى طاعة. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

والرضا هو الحال الذى ينبغى أن يستقبل به القلب أقدار الله عز وجل وبخاصة المؤلمة منها. وعلى قدر قيام القلب بهذه الأعمال تكون عبوديته لربه، ومن ثم قربه منه.

فإن قال قائل ولكن كيف يمكننا القيام بهذه الأعمال القلبية، وماهو دور القرآن فى ذلك؟!

قبل الإجابة عن هذا السؤال لابد أن يتطرق الحديث حول منشأ هذه العبادات والفرق بين الحال والمقام.

الحال والمقام:

عندما تبلغ مسامع شخص ما أخبار سارة فإنه يعيش فى حالة من الفرح والسرور، وعكس ذلك يكون عند تلقيه أخباراً محزنة، هذه الحالة تزول بعد فترة من تعرضه للمؤثرات التى أثرت فيه، فإذا ما كان المؤثر شديداً أو استمر فى تعرضه له لفترة طويلة، فإن هذه الحالة الشعورية التى انتابته ستلازمه لفترة أطول من الزمن، وهذا ما يسمى بالمقام أى أنه أقام فى هذه الحالة واستمر عليها.

فالحال إذن هو الحالة الشعورية الطارئة التى تنتاب الشخص عندتعرضه لمؤثر ما، ولايصبح هذا الحال مقاماً إلا إذا عاش فيه ولازمه وأقام فيه، فقد تتلقى امرأة خبراً بوفاة زوجها الذى هو فى نفس الوقت شقيقًا لواحد من الناس وابن عم لواحد آخر.. بلاشك سيعيش الجميع فى حالة من الحزن وقت تلقيهم النبأ، هذه الحالة ستزول عند ابن العم فى وقت أقصر منه عند الأخ، أما الزوجة ففى الغالب أن حالة الحزن ستلازمها وقتًا طويلاً فتظل فى مقام الحزن..

.. هذا من ناحية المشاعر، أما من ناحية السلوك فعلى قدر استثارة المشاعر تكون القوة الدافعة للعمل، فعلى قدر قوة المؤثر يكون العمل المصاحب، وعلى قدر الاستمرار أو المقام فى الحالة الشعورية المستثارة يكون الاستمرار فى العمل المصاحب.

فالبكاء مثلاً عمل مصاحب لمشاعر الحزن عندما تتمكن من القلب، وسرعة استدعائه مرتبطة ببقاء هذه المشاعر فى حالة من التوهج.

فإذا ما اتضح هذا الأمر فما علينا إلا أن نسقطه على عبادات القلوب.

- فالشكر عبادة قلبية تنتج من استثارة مشاعر الحب لله عز وجل، هذه الحالة الشعورية قد تكون طارئة فيعيش القلب شاكراً الله عز وجل فى لحظات معدودة، وقد تستمر الحالة فترة طويلة فيستمر القلب فى مقام الشكر مما يدفعه إلى القيام بأعمال تُعبر عن هذه العبادة القلبية كسجود الشكر، وقيام الليل، وكثرة حمد الله عز وجل باللسان وذكر نعمه والتحدث عنها.
- والشعور بالاحتياج إلى الله عز وجل يستدعى عبودية الاستعانة به سبحانه وتعالى، وعلى قدر قوة الحالة الشعورية يكون العمل المصاحب والذى يمثله الدعاء إلى الله عز وجل بإلحاح وصدق. واستمرار هذه العبودية وهذا العمل مرهون ببقاء تلك الحالة الشعورية.
- وعندما تهيج مشاعر الحياء من الله عز وجل يعيش القلب فى عبودية المراقبة والإخلاص والتى قد تصل إلى الإحسان المذكور فى حديث جبريل المشهور أى أن تعبد الله كأنك تراه.
- وعندما ينتاب الشخص شعور بالعجز والانكسار لله عز وجل، يعيش قلبه فى عبودية الاستسلام والخضوع لله عز وجل.

■ وعندما تتأجج مشاعر الخوف من الله عز وجل فى القلب فإنه يعيش عبودية التقوى له سبحانه.

أما عبودية الإنابة والتوبة فيتجه إليها القلب عندما تستثار مشاعر الرغبة والطمع فيما عند الله عز وجل.

.. هذه الأحوال المختلفة التى قد تطرأ على مشاعر العبد تجعل قلبه يتقلب فى ألوان من العبودية لله عز وجل بقدر ما تمكث هذه الأحوال، وما من مؤمن بالله عز وجل إلا وعاش فيها ولو للحظات، ولكنه لايلبث أن يعود إلى سابق عهده من الغفلة بعد ذهاب المؤثر القوى.

الطريق إلى العبودية:

إذن لكى يصبح القلب فى عبودية تامة ودائمة لله عز وجل يجب أن تكون مشاعره متوجهة إلى الله عز وجل وبصورة مستمرة، مما يجعل استثارة أى منها تتم بأدنى مؤثر، فيؤدى ذلك إلى توجه القلب إلى العبادة المناسبة للمشاعر المثارة وبصورة تلقائية، فإن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، وإن عزم على أمر توكل على الله، وكلما توجه القلب إلى العبودية المناسبة فإنه بذلك يسير إلى الله ويقترب منه.

ولكن كيف يمكننا أن نصل إلى هذه الحالة القلبية من خلال القرآن؟!

الطريق الذى يسلكه القرآن للوصول بصاحبه إلى هذه الحالة يتلخص فى قدرة القرآن على إنشاء الأحوال المختلفة التى يعيشها القلب وذلك بتنوع مؤثراته عليه، فتارة يخوفه بذكر يوم الحساب وما فيه من أهوال، ويذكره النار وما تحتويه من ألوان العذاب، وبعاقبة المكذبين من الأمم السابقة..

وتارة يرغبه بذكر الجنة وما فيها من ألوان النعيم، وتارة يستثير فيه مشاعر الحب بكثرة ذكر النعم، وتارة يستثير مشاعر الاحتياج إلى الله بعرض جوانب الفقر إليه..

هذه الأحوال التى ينشئوها القرآن فى القلب تتحول بمرور الأيام إلى مقامات ثابتة يعيشها القلب، وذلك من خلال كثرة استثارته للمشاعر المختلفة ودوام الضغط عليها حتى تتمكن الأحوال الطارئة من القلب فتصبح مقامات ثابتة.

أهمية الانشغال بالقرآن:

ولكى يصل المرء إلى هذه الحالة لابد له من كثرة قراءة القرآن ودوام التفكر فى الآيات.. لابد أن تأخذ آيات القرآن وقتها الكافى مع القلب لتستقر الأحوال التى تثمرها

فيه، فتنتج هذه الأحوال عبادات قلبية.. هذه العبادات ستدفع صاحبها للقيام بالأعمال الصالحة التى تعبر عنها. وهذا ما كان يفعله الصحابة رضوان الله عليهم- كما سيمر علينا بمشيئة الله فى الفصل القادم- كانوا يأخذون عشر آيات فقط من النبى ﷺ فيعيشون معها بكل جوارحهم فتُحدث لهم أبلغ الأثر من تغيير فى عقولهم، وتعبيد قلوبهم لله عز وجل، وتدفعهم لسرعة الاستجابة والمبادرة للقيام بأى عمل صالح يعبر عن عبودتهم التامة لربهم.. ثم ينتقلون بعد ذلك إلى غيرها.

تأمل معى حالهم وقد امتلأت قلوبهم حبًا لله عز وجل نتيجة لتفاعلهم مع آيات القرآن التى لاتخلو من بيان صور كرمه سبحانه على عباده وإنعامه عليهم... تأمل معى وقد هاج عليهم هذا الحب والتاعت به قلوبهم، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه بذلك ويقولون له: يارسول الله، والله إنا لنحب ربنا، فأنزل عز وجل قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١](١).

من أجل ذلك كانوا يظلون فترة طويلة فى حفظ السورة من القرآن، فلقد أتم عمر بن الخطاب حفظ سورة البقرة فى اثنى عشر عامًا، أما ابنه عبد الله فقد أتمها فى ثمانى سنين.

إن حفظ سورة البقرة لايستغرق عدة أسابيع أو شهور إن كان الأمر يقتصر على حفظ ألفاظها فقط، أما إذا كان الأمر مرتبطًا بتأثير القرآن على العقل ليعيد تشكيله، وعلى القلب ليعبِّده لله عز وجل، فالأمر بلاشك سيختلف ، وسيحتاج إلى سنين كما فعل عمر ابن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤ / ٤٠).

المحور الثالث

القرآن والنفس

بمداومة قراءة القرآن بتدبر وتفهم تبدأ خريطة الإسلام تُرسم فى الذهن، ويعاد تشكيل العقل من جديد، ويُبنى فيه اليقين الصحيح.

ومع التغيير الذى يحدث فى العقل فإن القرآن كذلك يؤثر فى المشاعر ويوجهها تجاه المولى عز وجل مما يزيد الإيمان، وينصلح القلب فتنصلح الجوارح تبعًا له.

.. هذا العمل الصالح الذى تقوم به الجوارح سيواجه عقبة كبيرة تعمل على منع وصول أثره إلى القلب، هذه العقبة هى الشىء الذى وضعه الله داخلنا ليمتحننا به..

إنها النفس التى جُبلت على حب الراحة والشهوات، والتى لا تفكر إلا فى لذتها الآنية، ولا تنظر إلى عواقب أفعالها ولو كانت بعد لحظات، كالطفل الذى لايفكر إلا فيما يريد وإن كان سيتسبب فى هلكته.

أنواع الشهوات:

والشهوات التى تسعى النفس دائمًا للحصول عليها إما أن تكون مادية مثل ما هو مذكور فى قوله تعالي: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ** ﴾ [آل عمران: ١٤].

ومنها ما هو معنوى كحب الرفعة عمن حولها وتميزها على أقرانها، وأن تُحمد على أفعالها وترتفع منزلتها فى عيون الآخرين.

فالنفس تريد فى كل لحظة من اللحظات استيفاء شهوة من شهواتها فى حين أنها تنفر من كل تكليف يتعبها أو عمل لا تخرج منه بشىء من حظوظها.

من هنا كان استثقالها للقيام بأى طاعة، فإذا ما دخل الإيمان القلب وارتفع مستواه فيه، وبدأ فى صراعه مع هوى النفس واستطاع أن ينتصر عليه.. فإن إرادة القلب ستكون طوع أمره وستأمر الجوارح بتنفيذ ما يريد من أعمال صالحة.

ولكن هل ستضع النفس سلاحها وتستسلم لقرار القلب وتنتظر معركة أخرى مع الإيمان أم سيكون لها توجه آخر؟!

عندما تنهزم النفس وهواها أمام داعى الإيمان، وتتأكد أنه لا حيلة لها إلا الاستسلام فإنها لاتترك الأمر هكذا يتم رغمًا عنها، بل يتحول اهتمامها إلى كيفية الاستفادة من هذا العمل لخدمة حظوظها.

ومن صور ذلك: إلحاحها على صاحبها ودعوته لإظهار عمله أمام الناس ليعظم قدره فى أعينهم فيمدحوه، ويوقروه، ويعظموه... وهذا من أحب الأمور لدى النفس بل يعد من أحلى الأشربة لديها.

فإن لم يكن هناك فرصة لإظهار العمل أمام الناس كان هناك طريق آخر أمام النفس يخدم حظوظها ألا وهو سعيها بأن تجعل العمل كبيراً فى عين صاحبها فتلح عليه كى يحمدها على قيامها به فيؤدى ذلك إلى إعجابه بعمله، بل قد يصل به الأمر أن يظن أن له قدراً عند الله بهذا العمل، وأنه أفضل من غيره، وشيئًا فشيئًا تعظم فى عينه فيغتر بها، ويتكبر على الآخرين.

ذلك كله يؤدى إلى إحباط العمل وعدم وصول أثره إلى القلب، بل يزيده بعداً من الله عز وجل ومقتاً، لأنه قد وقع فى الشرك الخفى والذى يعد من أخطر أنواع الشرك.

فالذى يعمل العمل وهو يريد به وجه الله وفى نفس الوقت يريد أن ترتفع منزلته عند الناس فقد أشرك بالله الناس.

والذى يعمل ويرى أن نفسه هى التى أعانته عليه فقد أشرك بالله نفسه.

الشرك الخفى:

قال ابن تيمية: «الرياء شرك بالناس، والعجب شرك بالنفس».

فكلا الأمرين ضد الإخلاص، فيُحرم القلب بذلك من ثمرة العمل، بل إن ثمرته تخدم جانب الهوى أكثر، وتقوى داعيه فى القلب، وهو ما يسميه العلماء بالشهوة الخفية، والتى قد تكون هى الدافع للعمل الذى يبدو أمام الناس أنه عمل صالح.

فأمر النفس إذن خطير، جد خطير، ولابد أن يشتد حذرنا منها وانتباهنا إليها حتى لا تضيع علينا ثمرة أعمالنا.

يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٦٤].

من هنا يتبين لنا أن جهاد النفس على لزوم الصدق والإخلاص هو هو الضلع الثالث لمثلث التغيير، فكل ما سبق ذكره فى جانبى العقل والقلب لن يؤتى أكله إلا إذا اكتمل بتزكية النفس وجهادها وترويضها على طاعة الله بصدق وإخلاص.

فإن كان الأمر بهذه الخطورة، فما هو دور القرآن فى تغيير النفس والسيطرة عليها واليأس من أن تكون فى يوم من الأيام سبباً لدفعنا للعمل الصالح الخالص لوجه الله؟!

يتجلى دور القرآن العظيم فى تغيير النفس من خلال عدة محاور أهمها تعريف الناس بحقيقة أنفسهم ومدى ضعفها، وتعريفهم بالله عز وجل وحقه عليهم، وإرشادهم إلى الوسائل التى تعينهم على جهاد أنفسهم، وإلزامها طاعة الله بصدق وإخلاص.

القرآن يعرفنا بأنفسنا:

من أهم الأمور التى تعين العبد على جهاد نفسه هو معرفته بها معرفة حقيقية، وعدم رضاه عنها، والتأكد أنها لن تأمره بشىء إلا إذا كان لها حظ فيه.

فمن أخطر الأشياء على العبد وثوقه بنفسه، ورضاه عنها، واعتقاده أنه قد يأتيه خير من قبلها. لذلك نجد القرآن كثيراً ما يعرفنا بأنفسنا وبخطورتها، وبضرورة الحذر الدائم منها.

يقول تعالى: ﴿ **وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ** ﴾ [النساء:١٢٨]

ويقول تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾[الشمس:٧-١٠]

ويذكرنا القرآن بحقيقة نفوسنا فيقول تعالى: ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾ [يوسف:٥٣].

ولايكتفى القرآن بتذكيرنا بحقيقة أنفسنا، بل يضرب لنا الأمثال، ويقص علينا القصص التى تبين خطورتها، وكيف استطاع الشيطان أن يستغل جهلها، وولوعها باستيفاء حظوظها العاجلة، وعدم نظرتها للعواقب.

فنجده يقص علينا قصة ابنى آدم، ودور النفس فيها.

يقول تعالى: ﴿ **فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ** ﴾ [المائدة:٣٠].

وإخوة يوسف الذين ألقوا بأخيهم فى البئر فقال لهم أبوهم يعقوب عليه السلام: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ [يوسف: ١٨].

وامرأة العزيز التى راودت يوسف عن نفسه، واعترفت بأن نفسها هى السبب فى ذلك ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف: ٥٣].

وبنو إسرائيل الذين فعلوا الكثير مما يغضب الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ [المائدة: ٨٠].

والقرآن كذلك يذكّرنا بحقيقة ضعفنا أمام أنفسنا، وأننا لا نستطيع الصمود أمام إلحاحها، كما قال تعالى على لسان نبيه يوسف- عليه السلام-: ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣].

معرفة حق الله:

من المحاور الرئيسية فى قضية تغيير ما بالنفس معرفة حق الله على عباده، وأن جميع البشر مدينون لله عز وجل، ومهما اجتهد العبد فى أداء الطاعات فلن يوفى جزءًا يسيراً من هذا الحق.

هذه الحقيقة عندما تستقر فى كيان الإنسان فإن من شأنها أن تُنسيه عمله الصالح، بمعنى أنه لن يظن أن له مكانة عند الله بهذا العمل، أو أنه يستحق به دخول الجنة، ودرجاتها العلى، بل يعمل العمل ويجتهد فيه ثم يستغفر الله بعد القيام به لشعوره بأن حق الله عليه أعظم مما يفعل، وأنه إن لم تتداركه رحمة الله وعفوه فسيهلك، كمن أدان شخصاً بمبلغ كبير من المال مثلاً مليون دينار، ثم قام هذا الشخص بالاجتهاد فى العمل وفى نهاية كل شهر قام بسداد درهم واحد.. ما هو شعور هذا الشخص وهو يقدم الدرهم لدائنه؟!.. هل شعور الفخر والإعجاب بهذا الدرهم، أم أنه سيُنكس رأسه وهو يعطيه له، ويشعره بتقصيره الشديد فى حقه ويستعطفه ويرجوه أن يسامحه على تقصيره؟! بل يرى أن قبوله له محض فضل منه وإحسان.

هذا لوكان الدين يساوى ذلك فقط، فما بالك بدين الله علينا الذى تعجز قدرات العقل عن إحصائه؟!!

فالله عز وجل له حقان على العبد: حق طاعة أوامره، وحق شكر نعمه.

والمتأمل فى القرآن يجد فيه مساحة كبيرة ومعتبرة تتحدث عن حق الله على عباده وبخاصة دين النعم، وتذكرهم ببعض تفاصيل هذا الحق، وواجبهم نحوه سبحانه وتعالى.

يقول تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

جوانب النعم:

ويعدد لنا القرآن بعضًا من جوانب نعم الله علينا لنستشعر حجم الدَّين الذى فى رقبتنا، مثل:

- نعمة الإيجاد. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

- ونعمة الإمداد مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

- ونعمة التسخير، مثل قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣].

- ونعمة الحفظ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء:٤٢].

- ونعمة الهداية ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل:١٢]، وقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل:٩].

- ونعمة التوفيق: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [هود:٨٨].

- ونعمة الثبات: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:٨٢].

- ونعمة العصمة من الفجور ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢١].

- ونعمة العفو: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٤].

- ونعمة الأمن والستر، ونعمة سبق الفضل، والعافية، والإمهال..

والقرآن بعد أن يعدد لنا بعضًا من جوانب النعم الإلهية على العباد يطالبنا بشكر هذه النعم، قال تعالى: ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وشكر النعم يبدأ بمعرفة حق الله ودينه المستحق علينا. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [فاطر: ٣].

وكلما توسع العبد في ذكر نعم ربه عليه ازداد يقينًا بأنه لن يستطيع أن يؤدى حقها، وأنه سبحانه وتعالى لو حاسبنا على نعمه وطالبنا بحقه لهلكنا، كما قال ﷺ: «**من نوقش الحساب عُذب**(١)».

فلا أمل لدينا إلا في رحمة الله ومغفرته وتجاوزه عن حقه، وعدم محاسبتنا على نعمه علينا..

عفو الله أو النار:

من هنا كان القرآن دومًا يذكر بهذه الحقيقة، وبأن سعينا مهما بلغ فلن يوجب بمفرده النجاة من النار فضلاً عن أن يُدخل الجنة، وأن هذه النجاة وهذا الفوز لن يحدث إلا إذا تفضل الله علينا ولم يحاسبنا على نعمه، وتجاوز عن حقه، وعن تقصيرنا في أدائه كما قال تعالى على لسان أحد الناجين من النار: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات: ٥٧].

وليس معنى هذا ترك العمل والاجتهاد، فصاحب الدين الذى يرى استهتاراً من المدين وعدم مبالاته بالسداد، يجعله يُعرض عنه ويغضب منه ولايفكر في إسقاط دينه بخلاف من يراه مجتهداً في السداد- مع عدم قدرته على الوفاء- فإنه قد يتجاوز عنه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

فالعمل والاجتهاد في فعل الخيرات ما هو إلا وسيلة لنيل الرحمة والمغفرة والتعرض للعفو والتجاوز.

---

(١) متفق عليه.

لذلك نجد القرآن يطالبنا بالاجتهاد فى العمل للتعرض للرحمة والمغفرة الإلهية والتى إذا تمت للعبد فسيتبعها بمشيئة الله دخول الجنة، فضلاً ورحمة منه سبحانه.

قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

من فوائد النظر فى حق الله:

كثرة التفكر والنظر فى حق الله ودينه علينا له كثير من الفوائد التى من شأنها أن تعيننا على تحرى الصدق والإخلاص فى أعمالنا.

فمن هذه الفوائد:

١- عدم رؤية العمل الصالح أو الاعتماد عليه بل استصغاره، والنظر إليه بعين النقص مهما كان اجتهاد العبد، فالذى يجتهد ويجتهد ثم يسدد بضعة دراهم من دَيْنه البالغ المليون دينار لن يشعر بأنه قدم شيئا يُذكر، فتراه دومًا مستصغراً ما يقدمه لدائنه طامعًا فى عفوه.

٢- عدم احتقار الآخرين أو الشعور بالأفضلية عليهم، فالكل مدين لله عز وجل ولا يسع الجميع سوى عفوه وإلا فالنار مصير من لم يدركه هذا العفو.

فالذى يقدم خمسة دراهم لصاحب الدين الكبير لن يشعر بأنه أفضل ممن قدم درهمًا أو نصف درهم، فالكل مقصر، والكل يستحق العقوبة، ولا أمل إلا فى المسامحة والعفو.

٣- الخوف الدائم من عدم قبول العمل: فمن الطبيعى ألا يقبل صاحب الدين الكبير، سداد جزء يسير منه، فإن قبله فهذا محض فضل وإحسان منه.

لذلك كان الصالحون يجتهدون ويجتهدون ثم يخافون ألا يقبل منهم. قال تعالى واصفًا حال هؤلاء: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]

٤- الحذر الشديد من السكون إلى النفس أو الإعجاب بها حتى لا يتعرض العبد لمقت الله ومعاملته بالعدل لا بالإحسان، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾.

٥- الاجتهاد فى نسيان العمل بعد أدائه وعدم التحدث به أمام الآخرين.

٦- سؤال الجنة استجداءً لا استحقاقًا، فمن تفضل الله عليه، وقبل عمله، وتجاوز عن حقه لديه، وعفا عنه، أدخله الجنة ورفعه فى درجاتها بهذا العمل القليل الذى أداه.. رحمة منه- سبحانه- وفضلاً.

وسائل عملية:

ومع تذكير القرآن الدائم لنا بحق الله علينا فإنه يدلنا كذلك على وسائل عملية تجعلنا دومًا مستشعرين لهذا الحق منها:

١- ذكر النعم وإحصاء جوانبها:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [فاطر:٣].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ [المائدة:١١].

وقال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:٦٩].

فالتذكر الدائم لنعم الله عز وجل والعمل على إحصائها وكتابتها من أهم وسائل معرفة حق الله عز وجل علينا، ومن أكبر المعينات كذلك على شكره سبحانه.

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى:١١].

٢- ربط النعم بالمنعم وحمده عليها:

مما يعين على دوام تذكر حق الله علينا، ربط أى نعمة جديدة بالمنعم العظيم، وسرعة حمده عليها لينغلق الباب سريعًا أمام النفس، فلا تلح على صاحبها كى ينسب النعمة إليها، أو بحمدها عليها..

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون:٢٨].

وقوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

٣- الاستغفار بعد أداء الطاعة:

فالاستغفار بعد القيام بالطاعة دليل على استشعار العبد تقصيره فى حق الله، وأن هذه الطاعة لاتليق بجلاله ولا توفِّى حقه.. فبعد الإفاضة من عرفات علينا بالاستغفار، قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وبعد قيام الليل كذلك، قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

معرفة النفس:

هذا بالنسبة لوسائل معرفة حق الله واستشعاره بصورة دائمة، أما بالنسبة لوسائل معرفة النفس واليأس منها فهى:

١- معرفة جوانب الفقر إلى الله:

فمعرفة جوانب الافتقار إلى الله عز وجل تُنسى العبد نفسه وتُشعره بضآلة حجمها، وتُريه دائمًا فضل ربه عليه، وأنه به سبحانه لا بنفسه، وأنه - سبحانه- لو تركه لنفسه لهلك وضل، كالمريض صاحب الحالة الحرجة والذى تم إمداده بالمقويات والدم والهواء والسوائل من خلال أنابيب تتصل بجسمه، ولو قُطعت عنه لهلك.

فنحن بدون الإمداد الإلهى المستمر لحظة بلحظة نفتقد كل مقومات وأسباب الحياة والعافية والهداية والثبات والعصمة من الفجور و...

فمن عاش فى هذه الحقيقة سيقطع بالكلية اعتماده على نفسه أو غيره وسيتجه قلبه لله عز وجل، مادًا يده إليه مستجديًا فضله آملاً ألا ينقطع مدده عنه.

جوانب الفقر إلى الله:

أفاض القرآن فى بيان أوجه الفقر إلى الله عز وجل، منها:

- فقر الوجود وتوالى الإمداد: قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

■ الفقر إلى الرزق: قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ [الملك: ٢١].

■ فقر الهداية: قال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ [الحجرات: ٧].

■ فقر التوفيق والسداد: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧].

■ الفقر إلى العلم: ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [البقرة: ٣٢].

■ فقر العصمة من الفجور: ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣].

■ فقر العصمة من الكفر: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

■ فقر العصمة من الظلم: ﴿ رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٩٤].

■ فقر العصمة من الشيطان: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: ٨٣]

■ الفقر إلى تزكية النفس: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١].

■ فقر الصبر: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧].

■ الفقر إلى النصر والتمكين: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ١٠].

■ الفقر إلى الإعانة على القيام بالطاعة: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

■ الفقر إلى التوبة: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ [التوبة: ١١٨].

■ الفقر إلى إيجاد الماء: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك: ٣٠]

■ الفقر إلى وجود الليل والنهار وتعاقبهما: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ﴾ [القصص: ٧١].

■ فقر الأمن من العواصف والبراكين والزلازل والخسف: ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

■ الفقر إلى نزول السكينة: ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ١٠].

■ الفقر إلى الله فى كشف الضر: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل: ٦٢].

■ فقر الحفظ: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١].

■ فقر الولاية: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

٢- ومن وسائل اليأس من النفس كثرة الدعاء وسؤال الله كل شيء يحتاجه العبد كدليل على استشعاره لفقره الذاتى والمطلق إليه، وهذا فى القرآن أكثر من أن يحصى، مثل قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

٣- تتبع عيوب النفس:

وذلك من خلال التفكر فى مواضع المنع والحرمان من العصمة الإلهية وتخلية الواحد منا بينه وبين الذنب، ليعرف قدر نفسه وأنها لن تأمره بخير، فلولا الله ما اهتدينا ولا صمنا، ولا صلينا، ولكُنَّا من أبعد خلقه عنه، وأكثرهم فجوراً.

فما أكثر الأوقات التى يشعر فيها العبد باستثقال الطاعة، وسهولة المعصية، وإلحاح نفسه عليه لارتكابها، فالعاقل من تتبع هذه المواقف وواجه نفسه بها ليعرّفها حقيقتها وقدرها، ويدرك مدى عجزها وجهلها وظلمها وفقرها إلى مولاها، وهذا ما كان يفعله الصالحون كما جاء فى القرآن على لسان آدم وزوجه بعد أن أكلا من الشجرة: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]

وعلى لسان موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾ [القصص: ١٦]. وكذلك يونس عليه السلام: ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وعندما طلب يوسف عليه السلام سؤال النسوة اللاتى قطعن أيديهن عند رؤيته ليثبت براءته قبل خروجه من السجن، عند ذلك اعترفت زوجة العزيز أنها من وراء ذلك كله، وأقرت بأن نفسها هى التى أمرتها بذلك فقالت: ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [يوسف :٥٣].

٤- التخويف من عاقبة الرياء والعجب :

من وسائل الحذر من النفس :

دوام التذكير بخطورة الرياء والعجب وإحباطهما للعمل ليشتد حذر الإنسان من نفسه، ويخشى على عمله منها.

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ** ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ** ﴾ [التوبة: ٢٥].

٥- الخوف من الله :

فالخوف هو أفضل لجام تُلجم به النفس.

قال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وقال تعالى : ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا** ﴾ [الإنسان :٨- ١٠]

٦- التواضع :

التواضع من أفضل الوسائل التى تعين العبد على استصغار نفسه وعدم شعوره بالأفضلية على غيره، مهما كانت درجته أو ثقافته أو سبقه، ومن فوائده كذلك أنه لايرى نفسه أهلاً لتحمل مسئولية، أو إمارة، بل يكون حاله كحال موسى عليه السلام عندما استصغر نفسه على حمل الرسالة بمفرده، وطلب من الله عز وجل أن يشاركه أخوه فى حملها مع أنه عليه السلام كان أهلاً لذلك، وقد قام بحملها على أحسن وجه، وتحمل من فرعون ثم من بنى إسرائيل الكثير والكثير.

قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص: ٣٤].

وفى القرآن صور كثيرة للتواضع، وفيه كذلك تحذير من الكبر ومظاهره.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٨، ١٩].

وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

٧- الإسرار بالعمل ليظل باب طلب المنزلة عند الناس مغلقًا أمام الناس.

قال تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧١].

٨- كثرة الإنفاق فى سبيل الله: فالإنفاق فى سبيل الله يزكى النفس ويطهرها من شحها المجبولة عليه، فيجعلها سهلة سمحة مما يعين العبد على ترويضها.

قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦]

نماذج تربوية:

القرآن لايكتفى فى موضوع النفس ببيان خطورتها وضرورة الحذر منها ووسائل جهادها، بل يعرض لقارئه كذلك نماذج تربية الله عز وجل لرسله وأنبيائه على هذه المعانى العظيمة، وبخاصة رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام.

فمن توجيهات القرآن لنبينا ﷺ:

التذكير الدائم بفضل الله عليه.

قال تعالى: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقوله: ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء: ١١٣].

- ويذكره أنه بالله لا بنفسه.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٤].

- ويذكره فى بدايات الوحى بقوله تعالى: ﴿ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر: ٦].

- ويذكره كذلك بمدى فقره إلى الله: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٦، ٨٧].

- ويعلمه كيف يعبر عن حالة الفقر والمسكنة والاستسلام لله عز وجل.

قال تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

- ويذكره دوماً بأنه عبد لله عز وجل، لايملك من الأمرشيئًا، مثله مثل سائر البشر.

قال تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

احتياجات التغيير القرآنى:

رأينا فيما سبق قدرة القرآن على التغيير من خلال المحاور الثلاثة: العقل والقلب والنفس لينتج ذلك كله شخصية سوية تتمتع بفكر صحيح وعاطفة جياشة، وسلوك سوى مستقيم، أى أنه ينتج عبداً لله عز وجل فى كل أموره وأحواله، شعاره قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

هذه القدرة الفذة على التغيير التى يحملها القرآن فى طياته كيف نستدعيها وننتفع بها، أو بعبارة أخرى.. ما الأمور التى يحتاجها القرآن ممن يتعامل معه ليحدث فيه هذا التغيير؟

لو فكرنا معًا فى هذا الأمر، واسترجعنا ما قيل فى الصفحات السابقة لخلصنا إلى أن احتياجات التغيير القرآنى تتمثل فى هذه النقاط:

أولاً: تفريغ أكبر وقت للقرآن وعدم الانشغال بغيره- قدر المستطاع- ليتمكن القرآن من إعادة تشكيل العقل وترسيخ المعانى فيه، وبناء القاعدة الإيمانية فى القلب، ومعرفة النفس معرفة حقيقية، وتزكيتها وترويضها على القيام بطاعة الله مع تحرى الصدق والإخلاص.

وهذا يستدعى أيضًا المداومة على قراءته واعتباره أنه بمثابة الوجبة اليومية للعقل والقلب والنفس، فبها يتم دوام التذكير، ووضوح الرؤية ومن خلالها تتولد الطاقة الدافعة للعمل.

ثانيًا: التركيز الشديد عند قراءته والإنصات التام له، وعدم السماح للذهن أن يشرد.

ثالثًا: القراءة ببطء وترسل للتمكن من فهم المراد من الآيات.

رابعًا: تدبر الآيات وفهم المعنى الإجمالى المقصود منها، وأن يكون الهدف من قراءته البحث عن الهدى فيه لتحقيق المقصد من نزوله.

خامسًا: ترديد الآية التى تؤثر فى القلب لاستثارة المشاعر وترسيخ المعنى فى اللاشعور وزيادة الإيمان فى القلب.

سادسًا: حسن الاستفادة من الطاقة المتولدة من القراءة بتوجيهها نحو أعمال البر المختلفة والتى دلت عليها القراءة.

سابعًا: حفظ ما تيسر منه أو حفظه كله ليسهل التعبد به وقراءته واستدعاؤه فى أى وقت.

إن الذى يقرأ كتابًا- أى كتاب- له هدف من قراءته، والذى يستمع إلى شريط أو يقرأ صحيفة له هدف من ذلك، والقرآن ليس بأقل من هذه الأشياء، فلا ينبغى أن نقرأه لمجرد القراءة، أو طلب الثواب فقط دون النظر إلى الهدف الأسمى الذى من أجله أنزله الله عز وجل.

أهمية وجود المربى:

لكى تكتمل عملية التغيير، ويُنتج القرآن نماذج صحيحة، لابد من وجود من يقوم بمراقبة ومتابعة التطورات التى يحدثها القرآن فيمن يقوم بتغييره.

وهذا الدور الخطير هو دور الرسل والأنبياء ومن سار على نهجهم من العلماء الربانيين فى كل زمان ومكان، وهو الدور الذى قام به رسولنا الحبيب ﷺ خير قيام.

قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الجمعة: ٢].

إن للقرآن تأثيراً عظيماً على العبد المؤمن إذا ما أحسن استقباله.. هذا التأثير قد يدفع البعض إلى التشدد، وترك الاستمتاع بالطيبات..

وهنا يأتى دور المربى الذى يتعهد إخوانه المؤمنين من حوله، فيضبط الفهم، ويرتب الأولويات ويُوظف الطاقات.

تأمل معى خبر الثلاثة الذين ذهبوا إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادته ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تَقَالّوها (أى عدوها قليلة)، وقالوا: أين نحن من النبى ﷺ قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فأصلى الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟! أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأُفطر، وأُصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى**»(١).

ودخل ﷺ المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال: «**ما هذا الحبل؟**» قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت به.. فقال ﷺ: «**حُلّوه ليصلِّ أحدُكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد**»(٢).

فللمربى إذن دور أساسى وكبير فى عملية التغيير التى يقوم بها القرآن، قال تعالى: ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾ [الكهف: ٢٨]

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

الفصل الرابع

القرآن بين الأولين والآخرين

قد يظن البعض أن ما سبق ذكره عن قدرة القرآن على التغيير فيه مبالغة، ولايعدو أن يكون كلامًا نظريًا.

نعم القرآن لديه القدرة الفذة على التغيير الجذرى لأى شخص- كائنًا من كان- ومن أى نقطة يبدأ منها، واستبداله بشخص آخر عابدًا لله عز وجل فى كل أموره وأحواله.

ومن فضل الله على هذه الأمة أن جعل القرآن يحدث هذا التغيير فى أناس كانوا قبل إسلامهم غاية فى الغرابة والجاهلية، فدخلوا إلى مصنع القرآن ومدرسته فخرجوا منه أناسًا آخرين تفخر بهم البشرية حتى الآن.

إنها الدفعة الأولى التى تخرجت فى مدرسة القرآن وبأعداد كبيرة.. جيل الصحابة.

الرسول والقرآن:

ومما ساعد القرآن على إحداث هذا التغيير فى جيل الصحابة حسن تعاملهم معه بعد أن فهموا المقصد من نزوله.

ولقد كان أستاذهم وقدوتهم فى ذلك محمدًا ﷺ، فلقد عايش رسول الله ﷺ القرآن بكل كيانه وانصبغت حياته به، فكان قرآنًا يمشى على الأرض.

فلقد سُئلت السيدة عائشة – رضى الله عنها – عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن: يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه (١).

وجاءت سنته ﷺ شارحة للقرآن وموضحة له، بل إن الإمام الشافعى عليه رحمة الله يقول بأن كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن (٢).

وكانت قراءته ﷺ للقرآن متأنية مترسلة.. تقول السيدة حفصة رضى الله عنها: كان رسول الله ﷺ يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها (٣)، وكان ﷺ يقف عند المعانى متأملاً ومعتبرًا، فإذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ.

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٦-١٦٣، ٩١)، ومسلم رقم (٧٤٦) فى صلاة المسافرين وأبو داود فى الصلاة والنسائى فى قيام الليل.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٤).

(٣) رواه مسلم - باب صلاة المسافرين برقم (٧٣٣).

عن حذيفة بن اليمان- رضى الله عنه- قال: صليت مع النبى ﷺ ذات ليلة فافتتح بالبقرة فقرأها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع (١).

بل إنه عليه الصلاة والسلام قام ليلة بآية واحدة حتى أصبح يرددها، وهى قوله تعالى: ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [المائدة:١١٨](٢)

التحذير من عدم الانتفاع بالقرآن:

وكان ﷺ يحذر أصحابه من الاهتمام بشكل الأداء فقط دون المعنى، فعن سهل بن سعد الساعدى قال: بينما نحن نقترئ إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**الحمد لله كتاب الله واحد وفيكم الأخيار، وفيكم الأحمر والأسود، اقرأوا القرآن، اقرأوا، قبل أن يأتى أقوام يقرأونه يقيمون حروفه كما يقام السهم لايجاوز تراقيهم، يتعجلون أجره ولا يتأجلونه**»(٣).

وكان يؤكد لأصحابه على أن المعنى هو المقصود من القراءة، وأن القارئ لابد أن يفقه مايقول، فعندما سأله عبد الله بن عمرو بن العاص- رضى الله عنهما- عن المدة التى يختم فيها القرآن قال ﷺ: «... **اقرأه فى كل شهر**. قال: قلت: إنى أقوى على أكثر من ذلك. **قال**: **اقرأه فى خمس وعشرين** قال: قلت: إنى أقوى على أكثر من ذلك، **قال**: **اقرأه فى عشرين، اقرأه فى خمس عشرة، اقرأه فى سبع، لايفقه من يقرؤه فى أقل من ثلاث**»(٤).

القرآن علْم يدعو للعمل:

وكان ﷺ يدرك قيمة القرآن العظمى وأنه منهاج حياة ومصدر سعادة للفرد فى الدنيا والآخرة، لذلك كان حريصًا على أن يتعامل الصحابة مع آيات القرآن على أنها رسائل جاءتهم من ربهم، تأخذ بأيديهم إلى الصراط المستقيم، وهذا لن يتحقق إلا إذا جعلوا القرآن أمامهم واتبعوا تعليماته.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٧٦٤)، والنسائى (١٦٣٣)، وأبو داود (٨٧١)، والترمذى (٢٦٢).

(٢) رواه الإمام أحمد وابن ماجه والنسائى وحسنه الألبانى فى صحيح النسائى رقم (١٠١٠).

(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه، وابن المبارك فى الزهد.

(٤) رواه الإمام أحمد فى مسنده وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة ح (١٥١٣).

فالقرآن علْم يدعو للعمل، فمن سار وراء توجيهاته كان من أهله، وإن لم يكن يقرؤه، وهذا لايعنى ترك قراءته ولكن يعنى الحرص على العمل بمقتضى علمه.

ومما لاشك فيه أن الذى يواظب على قراءته ويتلوه بالليل والنهار، ويقرن ذلك بالعمل أفضل بكثير ممن يعمل به ولايقرؤه.

روى البخارى فى صحيحه عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال: «**مثلُ الذى يقرأ القرآن كالأترجة؛ طعمها طيب، وريحُها طيب، والذى لا يقرأ القرآن؛ كالتمرة، طعمها طيب، ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذى يقرأُ القرآن؛ كمثل الريحانة، ريحُها طيب، وطعمها مر، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن؛ كمثل الحنظلة طعمها مرٌّ، ولا ريح لها**»(١).

إن قيمة العلم الحقيقية فيما يحدثه من خشوع فى القلب يدفع صاحبه للعمل.

عن جبير بن نفير عن أبى الدرداء قال: «كنا مع النبى ﷺ فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: «**هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لايقدروا منه على شىء**». فقال زياد بن لبيد الأنصارى: كيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن، فوالله لنقرؤه، ولنقرئنّه نساءنا وأبناءنا؟ قال: «**ثكلتك أمك يازياد إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فما تغنى عنهم**؟ قال جبير: فلقيت عُبادة بن الصامت فقلت: ألا تسمع مايقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته الذى قال أبو الدرداء، قال: صدق أبو الدرداء إن شئت لأحدثنك بأول علم يُرفع من الناس: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد الجامع فلا ترى فيه رجلاً خاشعًا»(٢).

«فأخبر النبى ﷺ أن العلم عند أهل الكتابين من قبلنا موجود بأيديهم ولا ينتفعون بشىء منه لما فقدوا المقصود منه، وهو وصوله إلى قلوبهم حتى يجدوا حلاوة الإيمان به، ومنفعته بحصول الخشية والإنابة لقلوبهم، وإنما هو على ألسنتهم تقوم به الحجة عليهم»(٣).

من هنا يتبين لنا خطورة التحذير النبوى: «**القرآن حجة لك أو عليك**»(٤).

---

(١) رواه البخارى، كتاب فضائل القرآن (ح٥٠٢٠).

(٢) رواه الترمذى وقال: حسن غريب برقم (٢٧٧).

(٣) الذل والانكسار لابن رجب، ص (٤٦).

(٤) رواه مسلم.

وكما يقول ابن عمر رضى الله عنهما أن كل حرف من القرآن ينادى: أنا رسول الله إليك لتعمل بى، وتتعظ بمواعظى.

عدم الاختلاف فى القرآن:

لأن القرآن هو النعمة العظمى التى اختص الله بها هذه الأمة، ولأن عز المسلمين مرتبط بتمسكهم به، واجتماعهم عليه، كان ﷺ حريصًا على عدم الاختلاف فى القرآن، فما نعرف منه فلنعمل به، وما جهلنا منه فلنكله إلى عالمه سبحانه وتعالى.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: لقد جلست أنا وأخى مجلسًا ما أحب أن لى به حُمر النعم، أقبلت أنا وأخى، وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم فجلسنا حَجَرة إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم فخرج رسول الله ﷺ مغضبًا قد احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول: «**مهلاً ياقوم، بهذا أُهلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضهم ببعض، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم فردوه إلى عالمه**»(١).

وعن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقرءوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه**» (٢).

صفاء المنبع:

كان ﷺ حريصًا على وحدة التلقى وصفاء المنبع الذى يستقى منه الصحابة- رضوان الله عليهم- فكان دائم التوجيه لهم بعدم الانشغال بغير القرآن، جاءه عمر بن الخطاب يومًا بكتاب أصابه من بعض الكتب، فقال: يارسول الله: إنى أصبت كتابًا حسنًا من بعض أهل الكتاب، فغضب رسول الله ﷺ وقال: «**أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لاتسألوهم عن شىء فيحدثوكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيًا لما وسعه إلا أن يتبعنى**»(٣).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده.

(٢) رواه البخارى كتاب فضائل القرآن (٥٠٦٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده وعبد الرزاق وابن أبى شيبة والدارمى، وحسنه الألبانى فى الإرواء (١٥٨٩). والتهوك كالتهور وهو الوقوع فى الأمر بغير روية، والمتهوك: الذى يقع فى كل أمر، وقيل هو: التحير - ابن الأثير فى الغريب.

يقول سيد قطب – رحمه الله – فى تعليقه على هذه الحادثة:

« إذن فقد كان هناك قصد من رسول الله ﷺ أن يُقصر النبع الذى يستقى منه ذلك الجيل فى فترة التكوين الأولى على كتاب الله وحده، لتخلص نفوسهم له وحده، ويستقيم عودهم على منهجه وحده، ومن ثم غضب أن رأى عمر بن الخطاب– رضى الله عنه – يستقى من نبع آخر.

كان رسول الله ﷺ يريد صنع جيل خالص القلب، خالص العقل، خالص التصور، خالص الشعور، خالص التكوين من أى مؤثر آخر غير المنهج الإلهى الذى يتضمنه القرآن »(١).

الجيل الجديد:

استقبل الصحابة القرآن استقبالاً صحيحًا، وفهموا المقصد الأساسى من نزوله فانصبغت حياتهم به، وقطف الإسلام أطيب الثمار بظهور هذا الجيل الفريد الذى لم تشهده البشرية– وبهذا الكم– بعد ذلك.

إنه لأمر عجيب يشهد بقدرات هذا الكتاب على إحداث ذلك التغيير الجذرى فى النفوس.. أمة تعيش فى الصحراء... حفاة عراة.. فقراء، بلا مقومات تُذكر، لا توضع فى حسابات القوى الكبرى آنذاك من فرس وروم، وإن شئت فقل إنها كانت تابعة.. فيأتى القرآن ليغير هذه الأمة ويعيد صياغة شخصيتها، وكيانها من جديد، ويرفع هامات أبنائها إلى السماء، ويربطها بالله، ويُشعرها بالعزة والرفعة بإيمانها ودينها الذى ارتضاه الله لها.

يأتى القرآن ليصنع أمة جديدة لم يعهدها العالم من قبل.. تحطم الإمبراطوريات وتقلب الموازين، وتصبح فى سنوات معدودات صاحبة القوة الأولى فى الأرض بين الأمم.. الكل يخشاها.. الكل يتودد إليها.. لاتُشترى بالمال ولا بالجاه.. أمة عرفت مصدر عزتها فتمسكت به فأحسن قيادتها، وأسعد بها الدنيا ردحًا من الزمن..

انظر مثلاً إلى واحد من هؤلاء وهو يجيب على رستم قائد الفرس عندما سأله: ما الذى جاء بكم؟ فقال له: الله جاء بنا.. وهو الذى بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسل

---

(١) معالم فى الطريق (١٣، ١٤).

رسوله بدينه إلى خلقه، فمن قبله قبلنا منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأهله، ومن أبى إلا الحرب قاتلناه حتى نفضى إلى الجنة أو الظفر.

إنها العزة التى جعلت عمر بن الخطاب يقول لأبى عبيدة بن الجراح حين طلب منه أن يغير ثيابه المرقعة لتسلّم بيت المقدس ومقابلة عظماء النصارى: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فإن ابتغينا العزة فى غيره أذلنا الله.

وحدة التصور والسلوك:

عندما اتجه الصحابة بكليتهم إلى القرآن أنشأ عندهم وحدة التصور، مما أثمر إلى حد كبير وحدة السلوك، ولم لا والكتاب الذى تلقوا منه أفكارهم وتصوراتهم واحد.

أخرج ابن المبارك فى الزهد أن عمر بن الخطاب أخذ أربع مائة دينار فجعلها فى صرة ثم قال للغلام: اذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجراح ثم تلهَّ ساعة فى البيت حتى تنظر ما يصنع، فذهب بها الغلام إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه فى بعض حوائجك. فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالى ياجارية! اذهبى بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفدها. فرجع الغلام إلى عمر بن الخطاب فأخبره ووجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل فقال: اذهب بها إلى معاذ بن جبل ثم تلهَّ فى البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع، فذهب به إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذا فى حاجتك. فقال: وصله الله ورحمه، تعالى ياجارية! اذهبى إلى فلان بكذا وإلى بيت فلان بكذا وإلى بيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة معاذ، فقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا فلم يبق فى الخرقة إلا ديناران، فدحا بهما إليها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فسر بذلك عمر وقال: إنهم أخوة بعضهم من بعض (١).

من وصايا الصحابة:

لقد كان الصحابة- رضوان الله عليهم- يستشعرون جيداً أن استمرار عزة الإسلام ورفعته مرهون باستمساك أبنائه بالقرآن، فهو حبل الله الذى يجمع ولا يفرق، كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وكانوا يدركون أن الاستمساك بالقرآن يعنى اتخاذه دليلاً ومصباحًا وهاديًا لكل مايحبه الله عز وجل، فكانوا شديدى الحرص على استمرار تعامل الأجيال التى تليهم مع

(١) الزهد لابن المبارك، ص (١٧٨، ١٧٩).

القرآن بنفس الطريقة التى تعاملوا هم بها معه، وكانوا كذلك شديدى الخوف من أن يتحول القرآن من كتاب هداية يصنع النفوس الكبار ويحرر القلوب من أسر الدنيا وينقذ البشرية من الضلال إلى مجرد تراتيل ترددها الألسن ولا تتجاوز الحناجر.

وتجلى هذا جيداً فى توجيهاتهم ووصاياهم لمن بعدهم.

فمن هذه الوصايا:

١- التفرغ للقرآن وعدم الانشغال بغيره:

.. إن التفرغ للقرآن وعدم الانشغال بغيره من شأنه أن يجعل تصورات الشخص وخواطره ومنطلقات سلوكه تنطلق من معانى القرآن، لذلك كان الصحابة شديدى الحرص على تبليغ هذه الوصية لمن بعدهم، وبخاصة بعد انتشار الفتوحات، ودخول الكثيرين فى الإسلام ممن لم يعايشوا أجواء القرآن.

تأمل معى هذه الوصية لعبد الله بن مسعود- رضى الله عنه- والتى يقول فيها: جردوا القرآن ليربو فيه صغيركم ولا ينأى عنه كبيركم، فإن الشيطان يفر من البيت الذى تُقرأ فيه سورة البقرة.

قال شعبة أحد رواة هذا الأثر: فحدثت به أبا التياح وكان عربيًا فقال: نعم أُمروا أن يجردوا القرآن. قلت له: ما جردوا القرآن؟ قال: لايخلطون به غيره (١).

وعن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال: أصبت أنا وعلقمة صحيفة، فانطلقنا إلي ابن مسعود بها، وقد زالت الشمس أو كادت تزول، فجلسنا بالباب ثم قال ابن مسعود للجارية: انظرى من الباب فقالت: علقمة والأسود. فقال: ائذنى لهما. قال: فدخلنا. فقال: كأنكما قد أطلتما الجلوس؟ قلنا: أجل. قال: ما منعكما أن تستأذنا؟ قالا: خشينا أن تكون نائمًا. فقال: ما أحب أن تظنا بى هذا، إن هذه الساعة كنا نقيسها بصلاة الليل. فقلنا: هذه صحيفة فيها حديث حسن. فقال: هاتها، يا خادم هاتى الطست فاسكبى فيها الماء. قال: فجعل يمحوها بيده، ويقول: ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ** ﴾ [يوسف:٣]، فقلنا: انظر فيها، فإن فيها حديثًا عجبًا، فجعل يمحوها ويقول: إن هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره.

---

(١) فضائل القرآن للفريابى، ص (١٥١، ١٥٢).

قال أبو عبيد فى تعليقه على هذا الخبر: أرى أن هذه الصحيفة أخذت من بعض أهل الكتاب، فلهذا كرهها عبد الله (١).

جردوا القرآن:

كان عمر بن الخطاب ينهى وهو يرسل الجيوش عن الإكثار من رواية الحديث لعدم شغل الناس عن القرآن.. فعن قرظة بن كعب قال: خرجنا نريد العراق، فمشى عمر رضى الله عنه معنا إلى صرار فتوضأ، فغسل اثنتين ثم قال: أتدرون لِمَ مشيت معكم؟ قالوا: نعم، نحن أصحاب رسول الله ﷺ مشيت معنا، قال: إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جردوا القرآن، وأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ، امضوا وأنا شريككم، فلما قدم قرظة قالوا: حدثنا، قال: نهانا عمر بن الخطاب(٢). وعن عبد الله بن يسار قال: سمعت عليًا يخطب ويقول:

«أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه، فإنما هلك الناس حيث تتبعوا أحاديث علمائهم، وتركوا كتاب ربهم» (٣).

ويعلق الشيخ محمد الغزالى على هذين الخبرين فيقول: فعمر وعلى وغيرهما من الأئمة لايجحدون السنة، ولكنهم يريدون إعطاء القرآن حظه الأوفر من الحفاوة والإقبال. وذلك هو الترتيب الطبيعى، فلابد من معرفة القانون كله معرفة سليمة قبل الخوض فى شروح وتفاصيل لبعض أجزائه، إذ أن هذه التفاصيل والشروح لايحتاج إليها كل أحد، وربما شحنت الأذهان فلم تترك بها فراغًا للأصول اللازمة والقواعد الهامة(٤).

لقد أدرك الصحابة القيمة العظمى للقرآن، وقدرته على التغيير، وأدركوا كذلك أن انشغال الناس بغيره، سيشتت الذهن، ويصرف الوقت مما سيؤدى إلى عدم تمكن القرآن من قيادتهم وتغييرهم.

تأمل معى ما قاله الحارث الأعور.. قال: دخلت المسجد فإذا أناس يخوضون فى أحاديث فدخلت على علىّ فقلت: ألا ترى أن أناسًا يخوضون فى الأحاديث فى

(١) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص (٧٣).
(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/٩٩٩/١٠٠٠.
(٣) المصدر السابق (١/٢٧٢).
(٤) فقه السيرة للغزالى، ص (٣٧).

المسجد؟ فقال: قد فعلوها؟ قلت: نعم، قال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ستكون فتن**» قلت: وما المخرج منها؟ قال: «**كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل، هو الذى من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، فهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لاتزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم ينته الجن إذ سمعته أن قالوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ وهو الذي من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به هدى إلى صراط مستقيم**»(١).

٢- ومن هذه الوصايا تأكيدهم المستمر بأن المعنى هو المقصود من التلاوة والعمل هو ثمرته:

يقول ابن مسعود رضى الله عنه: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن (٢).

ويؤكد هذا المعنى أبو عبد الرحمن السلمى وهو أحد تلامذة الصحابة فيقول: إنما أخذنا القرآن من قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الآخر حتى يعلموا ما فيهن من العمل. قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعًا، وإنه سيرث القرآن من بعدنا قوم يشربونه شرب الماء لايجاوز هذا وأشار إلى حنكه (٣).

وفى هذا المعني يقول عمر بن الخطاب: لايغرركم من قرأ القرآن إنما هو كلام نتكلم به، ولكن انظروا من يعمل به (٤).

ويقول ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ**﴾ [البقرة: ١٢١] قال: يتبعونه حق اتباعه. وقال عكرمة: ألا ترى أنك تقول «فلان يتلو فلان» أى يتبعه ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا**﴾ [الشمس: ١، ٢](٥).

---

(١) رواه الدارمى فى سننه برقم (٣٣٣٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير- المقدمة- (١/ ٤).

(٣) فضائل القرآن للفريابى، ص (٢٤١).

(٤) اقتضاء العلم للعمل، ص (٧١).

(٥) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص (١٣٠).

العمل مقدم على الحفظ :

لقد كانت قضية العمل بما يتعلمونه من القرآن لايختلف عليها اثنان منهم، لهذا – كما يقول ابن تيمية – كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة.

قال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ فى أعيننا (١).

ولقد ظل عمر بن الخطاب يتعلم ويحفظ فى سورة البقرة اثنتى عشرة سنة، فلما أتمها نحر جزوراً،وهذا ابنه عبد الله يتعلمها فى ثمانى سنين(٢).

فالعمل بالقرآن كان لديهم مقدماً على حفظه، ولقد مات الكثير من أكابر الصحابة بل من العشرة المبشرين بالجنة دون أن يتموا حفظ القرآن..

أخرج ابن سعد فى طبقاته عن محمد بن سيرين قال: قُتل عمر ولم يجمع القرآن(٣).

وكما يقول الحسن البصرى أن رسول الله ﷺ تُوفى وما استكمل حفظ القرآن من أصحابه رضوان الله تعالى عليهم إلا النفر القليل، استعظاماً له، ومتابعة لأنفسهم بحفظ تأويله والعمل بمحكمه ومتشابهه(٤).

وفى هذا يقول عبد الله بن مسعود: «إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به ، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به».

وكان ابن عمر يقول: كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ فى صدر هذه الأمة لايحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يرزقون القرآن، منهم الصبى والأعمى، ولايرزقون العمل به (٥).

وليس معنى هذا هو إهمالهم حفظه،بل معناه انشغالهم بالعمل به عن حفظه، فالعمل بالقرآن مقدم على حفظه، فإن استطاع شخص ما أن يجمع بين الاثنين فهذا هو السابق حقا، فقد استطاع أن يجمع النبوة بين كتفيه إلا أنه لايوحى إليه..

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية، ص (٩٩).

(٢) تدبر القرآن للسنيدى، ص (٩٩).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/٢٢٤).

(٤) الحسن البصرى لابن الجوزى ص (٩٨).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١/٣٠).

٣- تصحيح مفهوم حامل القرآن:

يقول عبد الله بن عمرو بن العاص: من جمع القرآن فقد حمل أمراً عظيماً، فقد أُدرجت النبوة بين كتفيه، غير أنه لا يوحى إليه.

ولقد جمع أبو موسى الأشعرى الذين قرءوا القرآن وهم قريب من الثلاثمائة فعظَّم القرآن وقال: إن هذا القرآن كائن لكم ذخرا، وكائن عليكم وزرا، فاتبعوا القرآن، ولا يتبعكم، فإنه من اتبع القرآن هبط به على رياض الجنة، ومن اتبعه القرآن زجَّ به فى قفاه فقذفه فى النار (١).

وكان أبو عبد الرحمن السلمى إذا ختم عليه الخاتم القرآن أجلسه بين يديه، ووضع يده على رأسه وقال له: يا هذا اتق الله، فما أعرف أحداً خيراً منك إن عملت بالذى علمت(٢).

وكان محمد بن كعب القرظى يقول: كنا نعرف قارئ القرآن بصفرة اللون (٣).

فلا يصح جمع القرآن عندهم إلا بالعمل به أولاً،وهذا ما أشار إليه الحسن البصرى بقوله: إن أولى الناس بهذا القرآن من اتبعه وإن لم يقرأه (٤).

ويؤكد ابن عبد البر على هذا المعنى فيقول: وحملة القرآن هم العالمون بأحكامه، وحلاله وحرامه، والعاملون به (٥).

ولقد أتى رجل أبا الدرداء فقال: إن ابنى جمع القرآن، فقال: اللهم غفراً، إنما جمع القرآن من سمع له وأطاع (٦).

٤- ومن وصاياهم: الإيمان قبل القرآن:

والمقصد من هذه الوصية غرس قواعد الإيمان فى القلب وإقامة صرحه وتمكنه من الإرادة قبل حفظ حروف القرآن.

---

(١) رواه الدارمى وأبونعيم فى الحلية وإسناده حسن، انظر أخلاق حملة القرآن، ص (٢٠).

(٢) التذكار فى أفضل الأذكار، ص (٧٨).

(٣) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص (١١٢).

(٤) المصدر السابق.

(٥) التذكار فى أفضل الأذكار للقرطبى، ص (١٩٦).

(٦) فتح البارى كتاب فضائل القرآن (٩/ ٦٢)، وفضائل القرآن لأبى عبيد، ص (١٣٣).

يقول جندب بن عبد الله: كنا مع النبى ﷺ ونحن فتيان حزاير، فتعلمنا الإيمان قبل القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا(١).

ويؤكد على هذا المعنى عبد الله بن عمر رضى الله عنه بقوله: لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها، وأمرها وزجرها ،وما ينبغى أن يقف عليه منها، ثم رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدرى أمره ولازجره، ولا ما ينبغى أن يقف عنده، فينثره نثر الدقل (٢).

فإن كنت فى شك من هذا فتأمل معى هذا الخبر: كتب إلى عمر بن الخطاب بعضُ عماله فى العراق يخبرونه أن رجالاً قد جمعوا كتاب الله تعالى، فكتب لهم عمر أن افرض لهم فى الديوان، فكثر من يطلب القرآن، فكُتب إليه من قابل أنه قد جمع القرآن سبعمائة رجل. فقال عمر : «إنى لأخشى أن يسرعوا فى القرآن قبل أن يتفقهوا فى الدين، فكتب ألا يُعطيهم شيئًا» (٣).

ويُطلق الحسن البصرى ربيب الصحابة وأحد كبار التابعين تحذيره من حفظ حروف القرآن فقط فيقول: إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، ولم يأتوا الأمر من أوله. قال الله تعالى: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ [ص:٢٩]، وما تدبر آياته إلا اتباعه لعلمه. أما – والله– ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن كله وما أسقطت منه حرفًا.. قد والله أسقطه كله، ما رُئى القرآن له فى خلق ولا عمل، وإن أحدهم ليقول: والله إنى لأقرأ السورة فى نفس. ما هؤلاء بالقرّاء ولا العلماء ولا الورعة.. متى كان القرّاء يقولون مثل هذا؟ لا كثر الله فى الناس مثل هؤلاء (٤).

فالحسن البصرى يحذر من عدم أخذ أمر القرآن من أوله، وأوله كما مر علينا هو تعلم ما فيه من إيمان وعمل، ليأتى بعد ذلك الحفظ على قاعدة سليمة فيزداد به القلب إيمانًا.

---

(١) رواه ابن ماجه بإسناد حسن، وحزاير جمع حزير، وهو الشاب الممتلئ نشاطًا وقوة وجلداً.

(٢) أخرجه الحاكم، وصححه على شرط الشيخين، والدقل: هو ردئ التمر.

(٣) الحوادث والبدع للطرطوشى، ص (٢٠٦، ٢٠٧).

(٤) المصدر السابق، ص (٢٠٩، ٢١٠).

٥- ومن وصاياهم: ضرورة تدبر القرآن وفهمه وتحريك القلب به:

عن أبى جمرة قال: قلت لابن عباس: إنى سريع القراءة وإنى أقرأ القرآن فى ثلاث، فقال: لأن أقرأ البقرة فى ليلة فأدَّبرها وأرتلها أحب إلىَّ من أن أقرأ كما تقول(١).

وهكذا كان يفعل ابن عباس- رضى الله عنهما- ... يقول ابن أبى مليكة: سافرت مع ابن عباس - رضى الله عنهما- من مكة إلى المدينة فكان يقوم نصف الليل فيقرأ القرآن حرفًا حرفًا ثم يبكى حتى تسمع له نشيجًا (٢).

وعن أبن أبى ذئب- رحمه الله- عن صالح قال: كنت جاراً لابن عباس- رضى الله عنهما- وكان يتهجد من الليل فيقرأ الآية ثم يسكت قدر ما حدثتك، وذاك طويل، ثم يقرأ. قلت: لأى شيء فعل ذلك؟ قال: من أجل التأويل يفكر فيه (٣).

فبمثل ما كان يقرأ ابن عباس كانوا يوصون...

ومع شدة انشغالهم بالقرآن واعتنائهم به إلا أنهم كانوا يتفاوتون فى مدة ختمه. أخرج ابن أبى داود عن مكحول قال: كان أقوياء أصحاب رسول الله ﷺ يقرءون القرآن فى سبع، وبعضهم فى شهر، وبعضهم فى شهرين، وبعضهم فى أكثر من ذلك.(٤)

ولقد سأل رجل زيد بن ثابت: كيف ترى قراءة القرآن فى سبع؟ فقال زيد: حسن، ولئن أقرأه فى نصف شهر أو عشرين أحب إلىَّ وسلنى لم ذاك؟ فقال: إنى أسألك؟ قال زيد: لكى أتدبره وأقف عليه (٥).

فالعبرة عندهم ليست بكم القراءة بقدر ما كانت بالمعانى المستخرجة منها والتى تحرك القلوب وتدفع للعمل.

لذلك كان من وصايا ابن مسعود: لا تهذوا القرآن هذّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولايكن هم أحدكم من السورة آخرها (٦).

---

(١) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص (١٥٧).

(٢) مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر، ص (١٣١).

(٣) المصدر السابق، ص (١٤٩).

(٤) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (١/ ١٠٤).

(٥) مختصر قيام الليل، ص (١٤٩).

(٦) المصدر السابق، ص (١٣٢).

القراءة المتأنية أدعى لحسن الفهم:

سُئل الإمام مجاهد- تلميذ ابن عباس- عن رجل قرأ البقرة وآل عمران، ورجل قرأ البقرة، قيامهما واحد وركوعهما واحد،وسجودهما واحد، وجلوسهما واحد، أيهما أفضل؟ فقال: الذى قرأ البقرة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**﴾ [الإسراء: ١٠٦](١).

ولقد قيل للسيدة عائشة رضى الله عنها: إن أناسًا يقرأ أحدهم القرآن فى ليلة مرتين أوثلاثًا فقال: قرءوا ولم يقرءوا، كان رسول الله ﷺ يقوم ليلة التمام فيقرأ سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة النساء لايمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله تعالى ورغب، ولا يمر بآية فيها تخويف إلا دعا واستعاذ(٢).

وفى صحيح مسلم عن أبى وائل أن رجلاً يُقال له نهيك بن سنان جاء إلى عبد الله بن مسعود فقال: يا أبا عبد الرحمن: كيف تقرأ هذا الحرف، ألفًا تجده أم ياء «من ماء غير آسن» أو «من ماء غير ياسن» قال: فقال عبد الله: وكل القرآن قد أحصيت غير هذا؟ قال: إنى لأقرأ المفصل فى ركعة. فقال عبد الله: هذًّا كهذّ الشعر؟ إن أقوامًا يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع فى القلب، فرسخ فيه، فنفع..

ويُعلق النووى على قول ابن مسعود: معناه إن قومًا ليس حظهم من القرآن إلا مروره على اللسان، فلايجاوز تراقيهم ليصل لقلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب، بل المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه فى القلب (٣).

فلا بديل عن التدبر..

فإن قلت فما هو الحد الأدنى للسرعة فى القراءة؟!

يوضح ذلك الحسن بن على بقوله: اقرأ القرآن ما نهاك فإذا لم ينهك فلست تقرأه(٤).

---

(١) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص (١٥٧).

(٢) أخرجه ابن المبارك فى الزهد (١١٩٦)، ص (٤٢١).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى (٦/ ٣٤٥).

(٤) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص (١٣٤).

وعندما قال أبو جمرة لابن عباس: إنى سريع القراءة، إنى لأقرأ القرآن فى ليلة .. قال ابن عباس: لأن أقرأ سورة أحب إلىَّ .. إن كنت فاعلاً فاقرأ قراءة تسمعها أذنك ويوعها قلبك (١).

ومن هديهم فى تلاوتهم للقرآن: ترديد الآية التى تؤثر فيهم.

عن عباد بن حمزة قال: دخلت على أسماء رضى الله عنها وهى تقرأ: ﴿ **فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ** ﴾ [الطور: ٢٧]، فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو، فطال على ذلك فذهبت إلى السوق، فقضيت حاجتى ثم رجعت وهي تعيدها وتدعو(٢).

وظل عبد الله بن مسعود يردد قوله تعالى: ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [طه: ١١٤]، حتى أصبح(٣).

وظل عمر بن الخطاب يردد الفاتحة فى ليلة لايزيد عليها حتى أصبح (٤).

وقرأ عامر بن قيس ليلة سورة المؤمن فلما انتهى إلى قوله: ﴿ **وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ** ﴾ [غافر: ١٨]، فلم يزل يرددها حتى أصبح (٥).

٦- ومن وصاياهم: عدم التعمق فى إقامة حروف القرآن:

أخرج ابن الضريس فى فضائل القرآن عن الحارث بن قيس قال:

كنت رجلاً فى لسانى لُكنة، وكنت أتعلم القرآن فقيل لى: ألا تعلم العربية قبل أن تعلم القرآن! فذكرت ذلك لعبد الله بن مسعود وقلت: إنهم يضحكون منى، ويقولون تعلم العربية قبل أن تعلم القرآن، فقال: لا تفعل، فإنك فى زمان تحفظ فيه حدود القرآن، ولايبالون حفظ حروفه، وإن بعدك زمانًا تحفظ فيه الحروف وتضيع فيه الحدود(٦).

---

(١) فتح البارى (٩ / ١١٠).

(٢) مختصر قيام الليل، ص (١٤٩).

(٣) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص (١٤٦).

(٤) المصدر السابق، ص (١٤٧).

(٥) المصدر السابق، ص (١٤٧).

(٦) فضائل القرآن لابن الضريس، ص (٢٧).

وكأن ابن مسعود يريد أن يلفت الانتباه إلي أن الجهد الأكبر ينبغى أن ينصب فى اتجاه المعنى وما يحدثه فى القلب وليس فى اتجاه إقامة الحروف، وليس معنى هذا إهمال هذا الأمر، ولكنه وضعه فى حجم معقول يتناسب مع أهميته، فشكل العبادة- أى عبادة- مهم وضرورى للدخول على الله بها، ولا قيمة لعبادة تؤدى بشكل مبتدع، ولكن مع الاهتمام بالشكل ينبغي أن يكون الاهتمام الأكبر والأشمل لجوهر العبادة وروحها وما تحدثه فى القلب.

وفى هذا المعنى يقول حذيفة: أقرأ الناس للقرآن منافق يقرؤه، لايترك منه واواً ولا ألفًا يلفته بلسانه، كما تلفت البقرة الخلا بلسانها لايجاوز ترقوته(١).

وتأمل ما قاله فضالة بن عبيد الأنصارى لأبى سكينة: خذ هذا المصحف وأمسك علىَّ ولا تردنّ علىَّ ألفًا ولا واواً فإنه سيكون قوم يقرءون القرآن لايسقطون منه ألفًا ولا واواً ثم رفع فضالة يده، فقال: اللهم لا تجعلنى منهم (٢).

وهذا عبد الله بن مسعود يصف زمانه ويقارنه بأزمان أخرى فيقول: إنك فى زمان قليل قراؤه كثير فقهاؤه.. تحفظ فيه حدود القرآن، وتضيع حروفه.. قليل من يسأل.. كثير من يعطى .. يطيلون فيه الصلاة ويقصرون فى الخطبة.. يبدون فيه أعمالهم قبل أهوائهم ..وسيأتى على الناس زمان كثير قراؤه قليل فقهاؤه.. تحفظ فيه حروف القرآن وتضيع حدوده.. كثير من يسأل قليل من يعطى.. يطيلون الخطبة ويقصرون الصلاة، ويبدون أهواءهم قبل أعمالهم (٣).

ولقد قرأ رجل عند عمر بن عبد العزيز سورة، وعنده رهط.. قال بعض القوم: لحن. فقال عمر: أما كان فيما سمعت ما يشغلك عن اللحن؟ (٤).

٧- ومن وصاياهم: اترك نفسك للقرآن وتمسك به:

عن أبى قلابة أن رجلاً من أهل الكوفة لقى أبا الدرداء فقال: إن إخوانًا لك من أهل الكوفة يقرئونك السلام، ويأمرونك أن توصيهم. فقال: أقرئهم السلام ومرهم فليعطوا القرآن بخزائمهم فإنه يحملهم على القصد والسهولة ويجنبهم الجور والخزونة (٥).

---

(١) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص ٢١١.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٢.

(٣) فضائل القرآن للفريابى، ص (٢٠٢، ٢٠٣)

(٤) سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزى، ص (٢٥٣)، واللحن هو الخطأ فى القراءة.

(٥) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص (٧٢).

والخزائم جمع خزامة وهى حلقة من الشعر تُوضع فى وترة أنف البعير يشد بها الزمام..

والمراد أى اجعلوا القرآن مثل الخزام فى أنف أحدكم فاتبعوه واعملوا به.

وهذه الوصية من أهم الوصايا التى قيلت فى القرآن، فمن ترك نفسه للقرآن ليقوده ويوجهه فسيحظى بالطريق السهل الآمن الذى لاتشدد فيه ولا تعسف.. طريق الحبيب المصطفى ﷺ وصحابته الكرام.

جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال: علمنى كلمات جوامع نوافع، فقال: نعم، تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتزول مع القرآن أينما زال، ومن جاءك بصدق من صغير أو كبير وإن كان بعيداً بغيضًا فاقبله منه، ومن جاءك بكذب وإن كان حبيبًا قريبًا فارددده عليه (١).

وقال حذيفة بن اليمان لعامر بن مطر: كيف أنت إذا أخذ الناس طريقًا واحداً وأخذ القرآن طريقًا، مع أيهما تكون؟ قال: أكون مع القرآن وأموت معه وأحيا معه، قال: فأنت إذاً أنت ، فأنت إذًا أنت » (٢).

فالمطلوب مع القرآن أن يكون أمانا، نسير وراءه كقائد وسائق يسوقنا إلى الله عز وجل وجنته .قال عبد الله بن مسعود: القرآن شافع مشفع، وماحل مصدق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار(٣).

ولقد أوضح الشعبى معنى ترك القرآن خلف الظهر، فقال فى قوله تعالى: ﴿ **فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ** ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، أما إنه كان بين أيديهم ولكن نبذوا العمل به، فهذا يبين لك أن من نبذ شيئًا فقد تركه وراء ظهره(٤).

---

(١) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص (٧٤).

(٢) المصدر السابق، ص (١٤٢).

(٣) فضائل القرآن لأبى الفضل الرازى، ص (١٥٣).

(٤) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص (١٣١).

حالنا مع القرآن

أتعلم أخى القارئ أن القرآن الذى بين أيدينا هو نفس القرآن الذى كان مع الصحابة – رضوان الله عليهم– وصنع منهم هذا الجيل الفريد؟

أتعلم أن الأدوات التى معنا هى التى كانت معهم، من عينين ولسان وشفتين وعقل وقلب وجوارح.

فما الذى حدث؟

لماذا لم يعد القرآن ينتج مثل هذه النماذج؟ مع أنه قد تيسر وجوده بين المسلمين أكثر من أى وقت مضى؟!

فما من بيت من بيوت المسلمين إلا وفيه مصحف أو أكثر، وما عليك إلا أن تدير مؤشر المذياع لتستمع إلى آيات القرآن تتلى فى إذاعة من الإذاعات. لقد أصبح القرآن فى عصرنا ميسراً للقراءة أكثر من أى وقت مضى، وانتشرت الكتاتيب، وازداد حفاظه من الرجال والنساء فى كل مكان، فلماذا لايحيينا كما أحيا جيل الصحابة، ولماذا لايرفعنا كما رفعهم؟

هل فقد مفعوله؟ أم ماذا حدث؟

يجيب عن هذه التساؤلات الشيخ محمد الغزالى– رحمه الله – فيقول:

إن المسلمين بعد القرون الأولى، انصرف اهتمامهم بكتابهم إلى ناحية التلاوة، وضبط مخارج الحروف، وإتقان الغنن والمدود، وما إلى ذلك مما يتصل بلفظ القرآن والحفاظ على تواتره كما جاءنا أداءً وأحكامًا– أقصد أحكام التلاوة– لكنهم بالنسبة لتعاملهم مع كتابهم صنعوا شيئًا ربما لم تصنعه الأمم الأخرى، فإنّ كلمة (قرأت) عندما يسمعها الإنسان العادى أو يقولها تعنى: أن رسالة جاءته أو كتابًا وقع بين يديه فنظر فيه، وفهم المقصود منه..

أما الأمة الإسلامية، فلا أدرى بأية طريقة فصلت بين التلاوة وبين التدبر، فأصبح المسلم اليوم يقرأ القرآن لمجرد البركة كما يقولون، وكأن ترديد الألفاظ دون حس بمعانيها، ووعى لمغازيها، يفيد أو هو المقصود.

وعندما أحاول أن أتبين الموقف من هذا التصرف أجد أنه موقف مرفوض من الناحية الشرعية، وذلك أن قوله تعالى: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾[ص:٢٩]، يعنى: الوعى والإدراك والتذكر والتدبر.. فأين التدبر؟ وأين التذكر؟ مع تلك التلاوة السطحية التى ليس فيها أى إحساس بالمعنى، أو إدراك للمقصد، أو غوص فيما وراء المعنى القريب لاستنتاج ما هو مطلوب لأمتنا من مقومات نفسية واجتماعية تستعيد بها الدور المفقود فى الشهادة على الإنسانية وقيادتها إلى الخير(١).

تاريخ هجر القرآن:

والمقصود بهجر القرآن أى هجر الانتفاع به، وعدم الدخول إلى مصنعه وماكيناته التى من شأنها أن تغير الشخص- أى شخص- لتصنع منه مؤمناً عابداً لله - عز وجل - فى كل أموره وأحواله.

وتاريخ هجر القرآن يبدأ من قرون ماضية، حيث اهتم المسلمون ببعض جوانب العلم، وتوسعوا فيها كعلم الكلام والفقه، فوضعوا لها قواعد ثم شروحًا ثم حواشى ثم مختصرات، وكان هذا كله على حساب القرآن الذى بات لا يُستدعى إلا فى المآتم وعند المرض وفى رمضان.

يقول الشيخ محمد الغزالى رحمه الله:

هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث..

ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة..

ثم هجروا أقوال الأئمة إلى أسلوب المقلدين..

وكان تطور الفكر الإسلامى على هذا النحو وبالاً على الإسلام وأهله، روى ابن عبد البر عن الضحاك بن مزاحم: « يأتى على الناس زمان يعلق فيه المصحف حتى يعشش عليه العنكبوت، لايُنتفع بما فيه، وتكون أعمال الناس بالروايات والأحاديث » (٢).

إذن فما يحدث للقرآن الآن من تعامل شاذ وغريب ما هو إلا نتاج ميراث ورثناه من القرون الماضية، تحول فيها المسلمون عن القرآن بالتدريج حتى صار إلى ما هو عليه الآن،

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن للغزالى، ص (٢٧، ٢٨).

(٢) فقه السيرة للغزالى، ص (٤٢، ٤٣).

وحين يتساءل بعضنا عن عدم قدرتنا على الانتفاع بالقرآن كما انتفع به الصحابة، لابد أن تبدأ الإجابة بتشخيص حالنا مع القرآن.

التشخيص:

الهدف الأسمى من نزول القرآن: هداية الناس إلى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ**﴾ [فصلت: ٤٤].

فهل تعاملنا مع القرآن من هذا المنطلق؟ وهل بدأنا معه من هذه النقطة وأتينا أمره من أوله؟ أم ماذا فعلنا؟ المتأمل لحالنا يجد أننا قد ابتعدنا فى تعاملنا مع القرآن عن الهدف الذى نزل من أجله، وتركناه كمصدر للهداية والتوجيه، ثم بحثنا عن ذلك فى مصادر أخرى فتشتتنا وتفرقنا.

لم نُعط القرآن حقه فى وقتنا، وعندما نقرؤه فبحناجرنا فقط، لم نُعطه الفرصة ليشكل تصوراتنا ويصيغ شخصياتنا ويكون المصدر الأول لثقافتنا.

يعيب بعضنا على من لايحسن أحكام التلاوة بل قد تهتز صورته فى عينيه، ولا نوجه أى نصيحة لمن لايفقه المعانى.

قصرنا فهمنا لحديث رسول الله ﷺ «**خيركم من تعلم القرآن وعلّمه**»(١) على تعلم قراءته فقط، مع أن المقصد من الحديث كما يقول ابن تيمية: تعلم حروفه ومعانيه جميعًا، بل تعلم معانيه هو المقصد الأول من تعلم حروفه، وذلك الذى يزيد الإيمان(٢).

أصبح جُل اهتمامنا حين نقرأ القرآن الوصول إلى نهاية السورة دون الاهتمام بتفهم ما نقول، بل قد ينتقل الواحد منا من سورة إلى أخرى دون أن يشعر، وإن سئلنا عن الآيات التى استوقفتنا فى تلاوتنا فلن نجد جوابًا.

وعندما يأتى رمضان- والذى شرفه الله بنزول القرآن فيه- يبدأ السباق فيما بيننا حول عدد ختمات القرآن التى سنختمها فيه.

- ظن بعضنا أن مفهوم الانشغال بالقرآن هو الانشغال بحفظ ومراجعة حروفه فقط دون التفقه فيه وفهم مراد الله منه، فانكب على حفظه آلاف وآلاف..

---

(١) أخرجه البخارى عن عثمان بن عفان، والترمذى وأبو داود.

(٢) تدبر القرآن للسنيدى نقلاً عن الفتاوى لابن تيمية (١٣/ ٣٠٤).

– تغير مفهوم حامل القرآن لدينا، فتجد الواحد منا كما هو قبل أن يحفظ السورة من القرآن وبعد حفظها ، لم يتغير أى شيء من أخلاقه أو تعاملاته.

– ندير مؤشر المذياع على صوت القارئ ثم نتركه ليملأ جنبات المكان وننشغل عنه بأمورنا الخاصة وكأننا لسنا المخاطبين بهذا القرآن.

لقد نبذنا كتابنا وراء ظهورنا وجعلناه أمانى، كما نقل ابن تيمية رحمه الله عن ابن عباس وقتادة فى قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ** ﴾ [البقرة: ٧٨] أى غير عارفين بمعانى الكتاب، يعلمونها حفظًا وقراءة بلا فهم، لايدرون ما فيها.

فماذا جنينا من وراء هذا التعامل؟

واقع الأمة الإسلامية:

القاصى والدانى يدرك ما وصل إليه حال الأمة الإسلامية من ضياع وتفكك، وذل نتجرع مرارته ليل نهار.

أصبحنا تحت أقدام الكفار يفعلون بنا مايشاءون.. صرنا فى ذيل الأمم.. أذلّ أهل الأرض .. لا قيمة لنا، ولا اعتبار لوجودنا.

تخلينا عن مصدر عزتنا، فاطمأن أعداؤنا لذلك، وبلغ استهزاؤهم بنا إلى درجة أن بعض إذاعاتهم تبدأ برامجها بالقرآن لعلمهم بأننا قد نبذناه وراء ظهورنا.

وعندما ظهر شعاع الضوء وبصيص الأمل فى تلك الظلمة الحالكة والذي تمثل فى ظهور الصحوة الإسلامية، لم تعط هذه الأجيال الشابة الواعدة القرآن حقه فى الفهم والعمل، ولم تتعامل معه كمصدر للهداية والتوجيه، بل تركته وبحثت عن غيره، فاختلفت المنابع، وتنوعت المشارب، فحدث ما حدث من خلاف فى التصور حول القضايا المختلفة، والأمور الجوهرية، ولم نعد على قلب رجل واحد.. فأبى الله أن يوفى بوعده ويطبق سننه معنا حين أسأنا، كما أوفى بوعده مع الجيل الأول حين أحسنوا التعامل معه..

فبعد أن كانوا أذلاء، فقراء، جهالاً، فى مؤخرة الشعوب قبل الإسلام، إذا بهم– بعد أن أحسنوا استقبال القرآن– فى المقدمة، سادة الأرض ومحط الأنظار: ﴿ **وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ١١١].

أما نحن فعندما تخلينا عن المصباح، وأهرقنا الدواء، والتمسنا الهدى فى غير القرآن، تركنا الله عز وجل، وجعلنا أذلة بعد أن كنا أعزة، وسلط علينا من كتب عليهم الذلة والمسكنة.. إخوان القردة والخنازير، وجعل منهم سياطًا يؤدبنا بها لعلنا نعود إليه وإلى كتابه.

قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٤٨].

فهل نحن راجعون؟!!

الفصل الخامس

حاجتنا إلى القرآن

الناظر المتفحص لأحوال الأمة الإسلامية يجد أنها تمر بأخطر مرحلة فى تاريخها، فبعد أن كان أعداؤها يخفون عداوتهم ومخططاتهم ضدها، أصبحوا اليوم يجاهرون بذلك بعد أن استطاعوا هزيمة المسلمين فى الميادين المختلفة؛ سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية، تقودهم فى ذلك الصهيونية العالمية التى تسعى سعيًا حثيثًا نحو إقامة مشروعها (إسرائيل الكبرى) والسيطرة على العالم كله بعد ذلك.

أما أبناء أمة الإسلام الذين انخدعوا فى السابق بشعارات الغرب البراقة، وكانوا يعترضون على من يطلق عليه مصطلح «نظرية المؤامرة» أو مصطلح «أعداء الإسلام»، أصبح هؤلاء اليوم يعيشون مع غيرهم من المسلمين فى واقعية المؤامرة، وما أفغانستان، وفلسطين، والعراق منا ببعيد.. فجراحات المسلمين فى كل مكان ولا ندرى أنبكى على هؤلاء أم على هؤلاء أم نبكى على أنفسنا، وعلى المجد الذى أضعناه، أو الذل الذى نتجرعه بالليل والنهار.

لقد انطبق حالنا مع ما أخبر به المعصوم ﷺ: «**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها**» فقال قائل: وقلة نحن يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن**». فقال قائل: وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»(١).

التشخيص:

والأمر اللافت للانتباه أنه كلما نزلت بالمسلمين نازلة، وأصابهم جرح جديد تعالت الأصوات من هنا وهناك بأن هذا عقاب من الله عز وجل قد حاق بنا، وهذه هى الحقيقة بالفعل، فما حدث للأمة ما هو إلا تطبيق لسنن الله الحاكمة للأرض.

قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأنفال: ٥٣].

ولما بدأنا نحن بالتغيير كان هذا الواقع الذى نشكو منه، فالله سبحانه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [يونس: ٤٤].

---

(١) صحيح أخرجه الإمام أحمد وأبو داود عن ثوبان، صححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة ح (٩٥٨).

لقد تمثل فينا قول رسولنا ﷺ «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد: سلط الله عليكم ذلاً، لاينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**» (١).

.. نعم هذا هو التشخيص الصحيح للوضع الأليم الذى يعيشه العالم الإسلامى اليوم، فمن ارتكب الذنب لا ينبغى عليه أن يستغرب العقوبة.

قال تعالى: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الروم: ٤١].

فلنبدأ بأنفسنا:

فإن كان الأمر كذلك، فإن هذا العذاب الذى نتجرعه بالليل والنهار لن يتوقف إلا إذا رجعنا إلى الله عز وجل، وغيرنا ما بأنفسنا تغييراً حقيقياً يشمل التصورات والسلوك، والسر والعلن، فنكون من بعده عبيداً لله عز وجل في كل أمورنا وأحوالنا، ويتمثل فينا قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

إن وعد الله لايتخلف، ولقد وعد عباده بنصرتهم وتمكينهم فى الأرض إن هم نصروه على أنفسهم أولاً.

قال سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [محمد: ٧].

إذن فلا بديل أمامنا إلا البدء فى عملية التغيير الداخلى لذواتنا إن أردنا الفلاح لأنفسنا والعز لأمتنا.

فإن قلت: إننا جميعًا متفقون على هذا التشخيص، ولكن ما منهج هذا التغيير المنشود الذى يتفق عليه الجميع، وما الكيفية التى من خلالها يقوم هذا المنهج بعمله فى ذات الإنسان فيُحدث فيه تغييراً جذرياً، ويعيد صياغته من جديد؟

.. هذه التساؤلات تتردد هنا وهناك، والكل يظن أن الأمر صعب يحتاج إلى بذل الكثير من الجهد لوضع المنهج المناسب لعملية التغيير.. إن الأمر أبسط من ذلك بكثير، فالله عز وجل، وهو الرؤوف الرحيم، لم يتركنا لنتخبط، أو لنختلف فيما بيننا حول

---

(١) صحيح، أخرجه أبو داود فى سننه عن ابن عمر وأورده الألبانى فى صحيح الجامع الصغير، وقال عنه: حديث صحيح برقم (٤٢٣).

منهج التغيير، بل أرشدنا – سبحانه وتعالى– إلى هذا المنهج، وبين لنا فيه طريقته فى التغيير.

أعطانا المصباح الذى بنوره ينكشف لنا الطريق، وتتبدد الظلمات.. وصف لنا الدواء الذى يعالج كل ما نعانى منه من أدواء.. فماذا فعلنا بهذا المصباح وبذلك الدواء؟!

لقد طرحنا المصباح جانبًا، وأهرقنا الدواء، ثم أخذنا نبكى ونقول: أين الطريق؟

لقد انطبق حالنا مع قول الشاعر:

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما

والماء فوق ظهورها محمول

كتابنا، مصدر عزنا، النور المبين، والهدى والشفاء: أدرنا له ظهورنا وتعاملنا معه بطريقة غريبة وشاذة، وأصبحنا لا نستدعيه إلا فى المآتم وأوقات المرض، وشهر رمضان، وغيره من المناسبات، واكتفينا بالتعامل مع ألفاظه فقط، والنظر إلى الثواب المترتب على قراءته، وإذا أردنا الدليل على ذلك، فليسأل كل منا نفسه: ما الهدف الذى يسعى إلى تحقيقه حين يقرأ القرآن؟ أليس هو إنهاء الورد وتحقيق أكبر قدر من الحسنات؟

ألهذا الهدف فقط نزل القرآن؟!

إن خير دليل على عدم صحة تعاملنا مع القرآن هو واقعنا نحن، فالبرغم من وجود عشرات بل مئات الآلاف من حفاظ القرآن على مستوى الأمة، وبالرغم من انتشار المصاحف فى كل مكان وبصورة لم تكن موجودة فى العصور الأولى، إلا أن الأمة لم تجن ثمارًا حقيقية لهذا الاهتمام الشكلى بالقرآن.

القرآن هو الحل:

لقد اهتدى الجيل الأول بنور القرآن فانصلح حاله، وساد الأرض فى سنوات معدودة، وبغير هذا النور لن ينصلح حالنا، فكما قال الإمام مالك: لايصلح حال آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.. وما صلح أولها إلا بالقرآن.

والأمر اللافت للانتباه أن رسول الله ﷺ قد أخبر بذلك، وأنه ستكون فتن وأن المخرج منها الاستمساك بالقرآن واتباعه، وأخبر كذلك أن القرآن والسلطان سيفترقان، وأن علينا بأن نكون مع القرآن.

قال ﷺ : «**أما بعد ، ألا أيها الناس ، إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، من استمسك به وأخذ به كان على الهدى ، ومن أخطأه ضل ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ، وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى**» (١).

وعندما سأله حذيفة بن اليمان رضى الله عنه : أبعد هذا الخير الذى نحن فيه من شر نحذره؟ قال ﷺ : «**ياحذيفة عليك بكتاب الله فتعلمه واتبع ما فيه**» حتى قال ذلك ثلاث مرات، قلت : نعم(٢).

إن التمسك بالقرآن يعنى أول ما يعنى اتباعه واتخاذه دليلاً وقائداً يقودنا إلى الله، قال الشعبى فى قوله تعالى : ﴿ **فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ** ﴾ [آل عمران : ١٨٧]، أما إنه كان بين أيديهم، ولكن نبذوا العمل به، فهذا يبين لك أن من نبذ شيئًا، فقد تركه وراء ظهره(٣).

فالمطلوب منا إذن تجاه القرآن يختلف عما نفعله . . المطلوب منا أن نكون معه كما كان الجيل الأول معه، ليفعل بنا كما فعل بهم، فالماكينات القرآنية- إن جاز هذا التعبير- جاهزة للعمل ولا ينقصها سوى دخولنا إليها .

وخلاصة القول أن تغيير هذا الواقع المرير الذى تعيشه الأمة، والذى أصبحت من خلاله تحت الأقدام لن يتم إلا إذا حدث تغيير حقيقى في الأفراد، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد : ١١] .

هذا التغيير لن يتم بصورة جذرية إلا من خلال العودة الحقيقية إلى القرآن كمصدر للهداية والتوجيه، وكمصنع للتغيير الحقيقى فى كيان الإنسان، ليجعل منه مؤمنًا صادقًا قولاً وسلوكًا، سرًا وعلانية .

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده، وعبد بن حميد عن زيد بن أرقم، وأورده الألبانى فى صحيح الجامع الصغير ح (١٣٥١) وقال عنه : حديث صحيح .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤ / ٤٣٢) من طريق عبد الرحمن بن قرط عن حذيفة مطولاً وصححه ووافقه الذهبى .

(٣) أخرجه أبو عبيد فى فضائل القرآن، ص (١٣١) .

لماذا القرآن؟:

قد يتساءل البعض: وماذا يمكن للقرآن أن يفعله؟!

إن القرآن سيفعل الكثير والكثير بعون الله عز وجل، وسيظهر إنتاجه فى وقت قصير شريطة حسن التعامل معه.

- فالقرآن- كما مر علينا- سيعيد تشكيل العقل، وبناء اليقين الصحيح فيه، ليثمر ذلك انسجام القول مع الفعل.
- والقرآن قادر- بإذن الله- على طرد الهوى وحب الدنيا من القلب، وطريقته الفريدة فى ذلك: زيادته المستمرة للإيمان، وتوليده طاقة كبيرة فى نفس قارئه تدفعه للقيام بالطاعات ومقاومة الشهوات، والسمو فوقها.
- وبالقرآن تتحقق الذاتية والإيجابية لدى الأفراد، فالقوة الدافعة، والطاقة المتولدة من القرآن وبصورة يومية تمثل أكبر دافع للمسارعة إلى الخيرات، وتنفيذ النصائح والتوجيهات التى تُلقى على المسامع لتصبح واقعًا ملموسًا، دون الحاجة إلى شدة المتابعة، وهذا ما كان يفعله ﷺ مع صحابته الكرام، فكان يكفيه التوجيه ليسارع الجميع بالتنفيذ، فعندما بلغ عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قول النبى ﷺ فى شأنه «**نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل**» (١)، قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لاينام من الليل إلا قليلاً.

وعندما قال ﷺ لعلى وفاطمة رضى الله عنهما: «**ألا أدلكما على ما هو خير لكما من خادم؟ إذا أويتما إلى فراشكما، فسبحا ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، وكبرا أربعًا وثلاثين**»، قال على: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ، فقيل له: ولا ليلة صفّين؟ قال: ولا ليلة صفّين (٢).

- وبالقرآن نتحرى الصدق والإخلاص فى أقوالنا وأفعالنا، فنزهد فى الرئاسة، وحب الظهور، وبه نكف عن تزكية أنفسنا والمباهاة بإنجازاتها، فتصبح سريرتنا أفضل من علانيتنا (٣).

---

(١) متفق عليه.

(٢) صحيح الكلم الطيب ح (٣٥).

(٣) فى الفصل الثالث (القرآن والتغيير) تم عرض الكيفية التى يقوم بها القرآن لتغيير العقل والقلب والنفس.

■ وسيعيد لنا القرآن الشعور بالعزة المفقودة فى زمن الهزيمة النفسية.. منطلق هذه العزة الشعور بقيمة الانتساب إلى الله عز وجل وحسن الصلة به، ومبعثها كذلك الثقة به سبحانه وتعالى.

■ والقرآن يستثير كوامن العقل ويحرره من أسر التقليد الأعمى، ويضبط هذا التحرر بضوابط الشرع. وهو أيضًا يرفع قدره ويعرفه قيمته فى الكون، فينطلق إليه ليكتشف أسراره، وينتفع بقوانين تسخيره، ليبدأ علو المسلمين من جديد فى شتى المجالات ويكون لهم قصب السبق كما كانوا من قبل.

القرآن وجمع كلمة الأمة:

القرآن هو الكتاب الوحيد القادر على جمع كلمة الأمة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فحبل الله هو القرآن كما قال ابن مسعود وغيره.

ومن وسائل القرآن فى تجميع كلمة الأمة، بناؤه لوحدة التصور لدى أفرادها، فهو قادر- بإذن الله- على رسم خريطة الإسلام الصحيحة فى ذهن كل مسلم بنسبها الصحيحة دون تفريط أو إفراط، لتنطلق الأعمال بعد ذلك منسجمة مع هذا التصور، فتتوحد الجهود، ويقل الخلاف- إن لم يتلاش- فى الأمور الجوهرية، ويضيق فى الأمور الفرعية ليصبح خلافًا محمودًا مرغوبًا يهدف إلى رفع الحرج عن الناس.

يقول سيد قطب رحمه الله: إننا نعتقد - بالدراسة الطويلة- أن هذا القرآن فيه غناء فى بيان الحقائق التى يقوم عليه التصور الإسلامى، فلا يحتاج إلى إضافة من خارجه فى هذا البيان..

ويستطرد قائلاً: ونحب أن يتعود قارئ هذا البحث أن يلجأ إلى القرآن وحده، ليجد فيه تبيانًا لكل شىء (١).

من هنا يتبين لنا أن الأمة الإسلامية بشبابها وشيوخها.. برجالها ونسائها لو اتجهت إلى القرآن دراسة وفهمًا، وأصغت سمعها إليه، وتعاملت معه على أنه كتاب هداية، فإن هذا من شأنه أن ينشىء قاسمًا مشتركًا بين أفرادها للتصور الصحيح لمفردات الحياة.. عندئذ لن نختلف فيما بيننا حول النظرة إلى الدنيا أو المال أو الأولاد.. ولن نجادل كثيرًا

(١) مقومات التصور الإسلامى، ص (٨٥).

حول مفهوم الجهاد والدعوة إلى الله.. سنجتمع على الكليات، ونعرف كيف نرتب الأولويات.

سمات المنهج القرآني:

مع هذه القدرة الفذة للقرآن فى التغيير، فإن طريقته ومنهجه سهل وميسر للجميع كما قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [القمر:١٧].

لايحتاج إلى طقوس خاصة أو أماكن خاصة للتعامل معه، فيكفى أن تتوضأ وتمد يدك إليه لتقرأه فى أى وقت وأى مكان طاهر.

منهج ينسجم مع الطبيعة البشرية، وما فيها من ضعف واحتياجات، فتراه لايصادم الفطرة، ولايدعو من يتمسك به إلى ترك الدنيا، بل يدفعه إلى حسن التعامل معها، فأهل القرآن هم أسعد الناس فى الدنيا والآخرة.

ومن سمات التغيير القرآنى كذلك أنه تغيير متكامل لايهتم بجانب على حساب جانب آخر، فكما يهتم بحسن علاقة المرء مع ربه، يهتم كذلك بحسن علاقته مع كل من حوله.

دفع شبهة:

ليس معنى القول بأن القرآن هو الحل أن يتحرك كل واحد بمفرده مع القرآن، فواقع الأمة يستدعى التحرك الجماعى لمواجهة مشروع الإبادة ومحو الشخصية الذى يعمل أعداؤنا على تنفيذه.

إن أعداءنا قد اجتمعوا علينا، وتوحدت كلمتهم فى القضاء على مقومات حضارتنا فليس أقل من أن نكون مثلهم فى توحدنا واجتماع كلمتنا.

يقول تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴾ [الأنفال: ٧٣].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن حجم الانحراف الذى حدث للأمة أكبر بكثير مما قد يتصوره البعض.. كل هذا يستدعى تضافر الجهود، والتحرك الجماعى، لا التحرك الفردى الذى يبعثر الجهود ويشتتها.

ومن ناحية ثالثة فإن الواحد بمفرده لن يسعه أن يتحرك بالقرآن منفرداً منعزلاً لأن آيات القرآن نفسها ستلاحقه بوجوب التحرك الجماعى وبناء المجتمع الإيمانى والانصهار فى بوتقته.

هذا التحرك الجماعى يحتاج إلى جيل يقود الأمة لمواجهة ما يُراد لها، ويسعى للتمكين لدين الله فى الأرض وإعادة مجد الإسلام من جديد.

فإن قال قائل: وأين موقع القرآن من هذا الجيل؟

نجيبه بأن القرآن هو منهج هذا الجيل فى التغيير: تغيير ما بالنفوس، وإقامة الإسلام داخلها، وقيادة الناس بالقرآن.

يقول الأستاذ حسن الهضيبى- رحمه الله -: أقيموا دولة الإسلام فى قلوبكم تقم على أرضكم.

لابد أن يتشبع هذا الجيل بالقرآن، فيملك عليه فكره وخواطره، ويستضى قلبه بنوره، فيجد الناس فيه النموذج والقدوة، فيثقون به ويسيرون خلفه.

ولكن هل معنى هذا ترك القراءة والاطلاع فى مؤلفات العلماء والباحثين؟!

ليس معنى الاهتمام بالقرآن واتخاذه منهجًا للتغيير أن نترك كتابات العلماء وما فيها من خير عظيم، ولكن المقصد ألا تكون قبل القرآن، بل خادمة له، تدور فى فلكه.. توسع المدارك وتفتح الآفاق لفهمه أكثر وأكثر.

ويأتى على رأس تلك العلوم: السنة النبوية المطهرة والتى تلى القرآن مباشرة فى الأهمية، فهى شارحة له، مبينة لكثير مما أُجمل فيه.

وكذلك فإن فروع العلوم الإسلامية الأخرى على درجة كبيرة من الأهمية، وسيكون لها أثر فعال فى تكوين الفرد إذا ما تم ربطها بالقرآن، ومع ذلك فإن من الأفضل تخصيص أكبر وقت للقرآن وبخاصة فى البداية، ليأخذ فرصته فى إعادة تشكيل العقل وبناء اليقين الصحيح فيه، وتحرير القلب من الهوى، وتمكين الإيمان منه، وترويض النفس على لزوم الصدق والإخلاص.

حاجة الفرد إلى القرآن:

إن كان القرآن هو الحل، ونقطة البداية التى ينبغى أن نبدأ بها على مستوى الأمة للخروج من هذا النفق المظلم الذى تسير فيه، فإن المسلم كذلك بحاجة ماسة إلى

القرآن، على مستواه الفردى وفى كل زمان ومكان.. فى ليله ونهاره، وحله وترحاله، وحتى بعد أن يعود للمسلمين عزهم ومجدهم بإذن الله، وذلك لدواع كثيرة منها:

أولاً: تحقيق الربانية:

فمن معانى الربانية: القرب من الله وحسن الصلة به، وطريق التحقق بها يستلزم معرفة الله عز وجل، فعلى قدر هذه المعرفة تكون عبودية القلب له سبحانه من حب وخشية ورجاء وتوكل وإنابة وإخلاص.

والطريق السهل الآمن لتلك المعرفة هو القرآن، فمن أهم سماته أنه كتاب تعريف بالله عز وجل، ولايكتفى بذلك بل إنه يُنشىء فى القلب العبودية المصاحبة لهذه المعرفة، فالقرآن هو أفضل وسيلة لتحقيق الربانية، فهو حبل الله المتين الممدود بين السماء والأرض، من تعلق به ارتفع قلبه إلى السماء وصار من عباد الله المقربين.

ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿ **وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ** ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وفى هذا المعنى يقول خباب بن الأرت لجار له: ياهناه تقرب إلى الله ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرب إليه بشىء هو أحب إليه من كلامه (١).

وفى الترمذى عن أبى أمامة مرفوعًا: «ما تقرب العباد إلى الله عز وجل بمثل ما خرج منه»

ثانيًا: تحقيق السعادة:

السعادة هى سكون النفس، وطمأنينتها، وهدوء الخواطر لديها، فلا تفكير فى ماضٍ يبعث على الحزن، ولا تطلع لمستقبل يزيد الهم، والسعادة بهذا المعنى لايمكن أن تأتى للإنسان من خارجه، بل إن مبعثها من داخل ذاته كنتيجة من نتائج هدايته للسلام مع نفسه، ومع كل الدوائر التى يتحرك فيها.

من هنا يأتى دور القرآن..

يقول تعالى: ﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب، ص (٦٨٠).

قال ابن عباس: فضمن الله لمن اتبع القرآن وعمل بما فيه ألا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة (١).

وفى الحديث عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أصاب عبداً هم ولا حزن فقال: اللهم إنى عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماض فىَّ حكمك، عدل فىَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى، ونور صدرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى وغمى، إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحًا**»(٢).

يقول ابن القيم فى تعليقه على هذا الحديث: ولما كان الحزن والهم والغم يضاد حياة القلب واستنارته، سأل أن يكون ذهابها بالقرآن فإنها أحرى ألا تعود، وأما إذا ذهبت بغير القرآن من صحة أو دنيا أو جاه أو زوجة أو ولد فإنها تعود بذهاب ذلك (٣).

فكلما ازداد اقتراب المرء من القرآن، ازداد شعوره بالأمان والسكينة.

قال عبد الله بن مسعود: إن هذا القرآن مأدبة الله فى الأرض فمن دخل فيه فهو آمن(٤).

ثالثاً: ومن دواعى حاجة المسلم إلى القرآن: زيادة الإيمان:

يمثل الإيمان جهاز المناعة لقلب الإنسان، ففى حالة زيادته يستطيع القلب أن يقاوم ضغوط النفس فيما تطلبه من شهوات، وفى حالة نقصانه يضعف القلب ويستسلم لها فى كثير من الأحيان.

والشهوات تحيط بالإنسان ليلاً ونهاراً، وبخاصة فى عصر كالذى نحيا فيه، والمسلم بحاجة دائمة إلى زيادة إيمانه، وأفضل طريق لذلك هو القرآن بتذكرته المستمرة، وبمواعظه البليغة التى تضرب بقوة على المشاعر فتؤججها وتوجهها وتسمو بها فوق الشهوات.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٧١).

(٢) صحيح الكلم الطيب ح (١٢٣)

(٣) الفوائد لابن القيم، ص (٤٠).

(٤) فضائل القرآن للفريابى: (١٦٦).

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]

فالقران إذن منبع عظيم من منابع الإيمان يفيض على كل من يَرِدُه.

قال محمد بن كعب القرظى فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، قال: هو القرآن، ليس كلهم رأى النبى ﷺ(١).

والقرآن مقوٍ للإرادة والعزيمة، يمنح صاحبه طاقة هائلة، وما عليه فقط إلا أن يحولها إلى حركة إيجابية فيما يحبه الله عز وجل.

يقول ابن القيم: فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة فيصلح القلب، وتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التى فطر الناس عليها فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية، كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعى، فيصير بحيث لايقبل إلا الحق، كما أن الطفل لايقبل إلا اللبن الذى تعوّد عليه(٢).

رابعًا: ومن دواعى العودة الحقيقية للقرآن: التذكر الدائم لحقائق الإيمان وجوانب الهداية:

مع استمرارية التعامل الصحيح مع القرآن يظل المسلم فى حالة دائمة من اليقظة والتذكر لحقائق الإيمان وجوانب الهداية..

ففى كل مرة نقرأ فيها القرآن سنجد آيات تعرفنا بالله عز وجل وبحقوقه علينا، وحقوق بعضنا على بعض، وبالرسول ﷺ والرسالة، وتعرفنا بأنفسنا وجوانب ضعفها وكيف نزكيها، وسنجد كذلك آيات تذكرنا بعداوة الشيطان وكيده المستمر لنا، وفى كل جلسة مع القرآن سنجد قصة وجودنا على الأرض تطل علينا وتذكرنا بالدنيا وقيمتها، وبحقيقة وجودنا فيها ومدى علاقتنا بمفرداتها من زوجة وأولاد ومال و...

وقلما سنخرج بعد لقائنا بالقرآن دون تذكرة بيوم الحساب وأحداثه، وبالجنة ونعيمها، والنار وألوان عذابها.

أما السنن والقوانين الإلهية التى يحكم الله بها الحياة فما أكثرها فى القرآن، وكذلك الحديث عن المكذبين وما يثيرونه من شبهات وتشخيص دوافعهم للتكذيب، والمآل الذى ينتظرهم إن استمروا على ذلك.

---

(١) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص (٥٨).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٧٥).

وفى مساحة ضخمة فى القرآن سنجد قصص السابقين من مؤمنين وكافرين، يقصها الله علينا ويكررها فى مواضع كثيرة لنأخذ منها العبرة ونربط بينها وبين واقعنا، فنزداد يقيناً بأن الباطل إلى زوال والعاقبة للمتقين.

خامساً: تحصيل العلم النافع:

يقول تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل:٨٩].

فمن أراد العلم - كما يقول ابن مسعود- فليتفكر فى القرآن (١).

ومن أجلّ العلوم التى يختص بها القرآن: معرفة الله عز وجل.

يقول ابن رجب: فالعلم النافع ما عرّف العبد بربه ودله عليه، حتى عرفه ووحده وأنس به، واستحيا من قربه وعَبَده كأنه يراه.

وكان السلف يقولون: إن العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمره، وعالم بأمر الله ليس عالمًا بالله.

فأصل العلم العلم بالله الذى يوجب خشيته ومحبته والقرب منه، والأنس به، والشوق إليه.

وكان الإمام أحمد رحمه الله يقول عن معروف الكرخى: معه أصل العلم خشية الله.

ثم يتلوه العلم بأحكام الله، وما يحبه ويرضاه من العبد من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد، فمن تحقق بهذين العلمين كان علمه علمًا نافعًا، وحصل له العلم النافع والقلب الخاشع والنفس القانعة والدعاء المسموع، ومن فاته العلم النافع وقع فى الأربع التى استعاذ منها النبى ﷺ وصار علمه وبالاً، وحجة عليه، فلم ينتفع به(٢).

ففى صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أن النبى ﷺ كان يقول: «**اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لايخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لايستجاب لها**».

فمن أراد العلم النافع فليبدأ بالقرآن ليعرف ربه من خلاله فيتحقق قلبه بالخشوع والانكسار له سبحانه، فإن انتقل بعد ذلك إلى تعلم أوامر الله وأحكامه صار من العلماء الربانيين.

---

(١) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص (٩٦)، ونص الأثر: عن عبد الله بن مسعود قال: إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين.

(٢) فضل علم السلف لابن رجب، ص (٥٠، ٥١).

قال كعب: عليكم بالقرآن فإنه فهم العقل ونور الحكمة وينابيع العلم، وأحدث الكتب بالرحمن عهداً(١).

ويقول مجاهد: استفرغ علمى القرآن(٢).

فمن ينشغل بالقرآن، ويوقف حياته له، لن يندم على ذلك لحظة من اللحظات.

يقول القرطبى: فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، الذى استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمرى(٣).

وهذا الإمام ابن تيمية يحال بينه وبين كتب العلم فى محبسه بالقلعة فيتفرغ للقرآن، ليقول عن هذه التجربة: قد فتح الله علىَّ فى هذا الحصن فى هذه المرة من معانى القرآن، ومن أصول العلم بأشياء كان الكثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتى فى غير معانى القرآن(٤).

سادساً: العصمة من الفتن:

فى هذا الجو المظلم الذى نعيش فيه، ومع ازدياد الفتن يحتاج المرء إلى ما يستمسك به ويأخذ بيده إلى بر الأمان، وهنا يأتى دور القرآن، فعندما سأل حذيفة بن اليمان رسول الله ﷺ: أبعد هذا الخير الذى نحن فيه من شر نحذره؟ قال له ﷺ: «**يا حذيفة عليك بكتاب الله فتعلمه واتبع ما فيه**» حتى قال ذلك ثلاث مرات (٥).

ولقد رأى حذيفة فى يوم من الأيام كثرة من الناس فقال لأحد التابعين وهو عامر بن مطر: يا عامر بن مطر كيف أنت إذا أخذ الناس طريقاً واحداً، وأخذ القرآن طريقاً مع أيهما تكون؟ قلت: أكون مع القرآن وأموت معه وأحيا معه. قال: فأنت إذاً أنت، فأنت إذا أنت(٦).

---

(١) سنن الدارمى رقم (٣٣٢٨)

(٢) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص (١٠١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/٦) (المقدمة).

(٤) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية لمحمد الزبيدى فى مقدمة كتاب الإيمان، ص (٢٠، ٢١).

(٥) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/٤٣٢) من طريق عبد الرحمن بن قرط عن حذيفة مطولاً وصححه الحاكم ووافقه الذهبى.

(٦) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص (١٣٢).

فعلى قدر تمسكنا بالقرآن واتصالنا الدائم به تكون نجاتنا بإذن الله عز وجل.

قال ﷺ: «**أبشروا، فإن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا، ولن تضلوا بعده أبداً**»(١).

إن الفتن التى تمر بنا فى هذا العصر كقطع الليل المظلم، تجعل الحليم حيران، وليس أمامنا من عاصم إلا الله وحبله المتين فلنسارع بالتعلق به.

قال ابن مسعود: إن هذا الصراط محتضر تحضره الشياطين، ينادون: ياعبد الله، هذا الطريق، هذا الطريق فاعتصموا بحبل الله فإن حبل الله القرآن(٢).

ومن شأن القرآن كذلك أنه يبعد عن أهله أى بوادر لليأس والإحباط مهما اشتد الظلام وادلهمت الخطوب، فهو يثبت القلوب على الحق ويربط عليها كما قال تعالى: ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ [النحل: ١٠٢].

سابعًا: ومن دواعى العودة للقرآن: حسن التعامل مع متغيرات الحياة:

ما من يوم تشرق شمسه إلا وللحياة فيه جديد، وليس من عاداتها أن تظل صافية لإنسان ما أبد الدهر، ومع كثرة متغيراتها تزداد الحاجة إلى وجود دليل ناصح، أمين يعرّفنا كيف نواجه تلك المستجدات.. وهنا يأتى دور القرآن، فما من مشكلة يتعرض لها الفرد إلا وفى القرآن حلها، كما قال ابن عباس: لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى القرآن..

فعند المصائب والشدائد تجده يربت على كتف صاحبه، ويدعوه إلى الصبر والاحتساب، ويحكي له نماذج لأناس أصابتهم مصائب أشد من مصيبته، فصبروا على ما أصابهم حتى جاءهم الفرج من حيث لم يحتسبوا.

والقرآن يوجِّه صاحبه نحو المعالى فيهوّن عليه، ويصغّر فى عينيه ما يتهافت عليه الناس، فيجعله دائمًا فى حالة من الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والشكر على العطاء.

ثامنًا: من دواعى العودة كذلك: الوصول إلى صداقة القرآن وشفاعته:

كلما اقترب المسلم من القرآن وتوثقت علاقته به، فسيجد أنه قد أصبحت له علاقة خاصة بسور القرآن، فهو ينتظر الوصول لسورة الأنعام لتزيده حبًا لله، ويتلهف لقراءة الأنفال ليزداد شعوره بالعزة، ويشتاق لسورة يوسف لتكون له نعم السلوى.

---

(١) صحيح رواه الطبرانى فى الكبير عن جبير وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ح (٣٤).

(٢) فضائل القرآن لابن الضريس، ص (٥٠).

يقول الأستاذ سيد قطب: هكذا عدت أتصور سور القرآن، وهكذا عدت أحسها، وهكذا عدت أتعامل معها بعد طول الصحبة، وطول الألفة، وطول التعامل مع كل منها وفق طباعه واتجاهاته وملامحه وسماته.. وأنا أجد فى سور القرآن تبعًا لهذا وفرة بسبب تنوع النماذج، وأنسًا بسبب التعامل الشخصى الوثيق، ومتاعًا بسبب اختلاف الملامح والطباع، والاتجاهات والمطالع..

إنها أصدقاء .. كلها صديق.. وكلها أليف.. وكلها حبيب .. وكلها ممتع.. وكلها يجد القلب عنده ألوانًا من الاهتمامات طريفة، وألوانًا من المتاع جديدة، وألوانًا من الإيقاعات، وألوانًا من المؤثرات تجعل له مذاقًا خاصًا وجوًا منفردًا.

ومصاحبة السورة من أولها إلى آخرها رحلة... رحلة فى عوالم ومشاهد، ورؤى وحقائق وتقريرات وموحيات، وغوص فى أعماق النفوس واستجلاء لمشاهد الوجود.. لكنها كذلك رحلة متميزة المعالم فى كل سورة ومع كل سورة(١).

وصداقة القرآن للعبد بعد طول الصحبة لا تقتصر على حياته الدنيوية فقط، بل تتعداها إلى حياة البرزخ فيكون القرآن أنيسًا له فى قبره أيضًا.

روى الترمذى عن ابن عباس قال: ضرب رجل من أصحاب رسول الله ﷺ خباءه على قبر وهو لايحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، ضربت خبائى على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة (الملك) حتى ختمها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هى المانعة هى المنجية من عذاب القبر**»(٢).

أما يوم القيامة، فللقرآن دور آخر، إذ أن يأتى شفيعًا لصاحبه عند ربه، ويرتقى به فى درجات الجنة.

فعن أبى أمامة الباهلى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعًا لأصحابه**»(٣).

---

(١) فى ظلال القرآن (٣/١٢٤٣).

(٢) رواه الترمذى وقال: حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٨٠٤)، كتاب صلاة المسافرين، باب قراءة القرآن.

الفصل السادس

عقبات فى طريق العودة

إن طريق العودة الصحيحة إلى القرآن كهادٍ إلى الله وإلى صراطه المستقيم.. سهل ميسر – بإذن الله – إذا ما استطعنا أن نجتاز العقبات التى وضعت أمامنا خلال القرون الأخيرة، وأن نغير بعض الموروثات التى ورثناها.

وفى هذا الفصل سيكون الحديث – بعون الله – عن أهم العقبات التى تقف فى طريق العودة وكيفية التعامل معها.

وهى على سبيل الإجمال:

١– الاهتمام بالشكل فقط.

٢– الخوف من تدبر القرآن.

٣– مفهوم التدبر وطبيعته.

٤– ضرورة ختم القرآن فى مدة محددة.

٥– أمراض القلوب.

٦– مفهوم الانشغال بالقرآن.

العقبة الأولى

الاهتمام بالشكل فقط

والمقصد من ذلك هو قصر التعامل مع القرآن على ألفاظه وحروفه فقط.

ومن مظاهر تلك العقبة:

- الاهتمام الشديد بإتقان أحكام التلاوة والتعمق فيها، دون أن يصاحب ذلك اهتمام مماثل بالمعنى.

- ومنها: التركيز عند قراءة القرآن على الانتهاء من أكبر قدر من الآيات، وبخاصة فى شهر رمضان حيث التسابق على عدد الختمات، دون أى اهتمام بالمعنى.

ومنها: الحرص على حفظ ألفاظ القرآن، وبذل الوقت والجهد فى ذلك، دون معرفة معانى الآيات، وما فيها من إيمان، وما تدل عليه من عمل.

- وغير ذلك من المظاهر التى تدور حول قصر الانتفاع بالقرآن على الناحية الشكلية فقط.

ومما يعين على تجاوز هذه العقبة: معرفة الهدف والمقصد الذى من أجله نزل القرآن، ثم ليسأل كل منا نفسه بعد ذلك: هل يمكننا تحقيق هذا المقصد بمجرد تلاوة ألفاظه بحناجرنا فقط؟! فكما قال الحسن البصرى رحمه الله: إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، ولم يأتوا الأمر من أوله. قال تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ**﴾ [ص:٢٩]. وما تدبر آياته إلا اتباعه لعلمه. أما - والله- ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله قرأت القرآن كله وما أسقطت منه حرفًا... قد والله أسقطه كله، ما رئى القرآن له فى خلق ولا عمل... (١).

إذن فاجتياز هذه العقبة يستدعى منا أن نأتى أمر القرآن من أوله، بمعنى أن يكون همنا فى التعامل معه كيفية الانتفاع به كهادٍ إلى الصراط، ومصنع للتغيير، وأما إتقان تلاوته والمداومة عليها وحفظه فما هى إلا وسائل معينة على تحقيق هذا المقصد.

قال الفضيل بن عياض: إنما نزل القرآن ليعمل به فاتخذ الناس قراءته عملا، قيل:

---

(١) سبق الإشارة إليه.

كيف العمل به؟ قال: أى ليحلوا حلاله، ويحرموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه (١).

بركة القرآن:

إن بركة القرآن تكمن فيما يحمله من معان عظيمة تنير الطريق وتشفى الصدور وتسعد العامل بها فى الدنيا والآخرة... فالمعنى إذًا هو المقصود من تلاوته، وما الترتيل والتدبر إلا وسائل لتحقيق ذلك.

يقول ابن تيمية رحمه الله: ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك (٢).

ويقول أيضًا: ولا يخفى على أولى الألباب أن المقصود بنزوله اتباعه، والعمل بما فيه، إذ العاملون به هم الذين جُعلوا أهله، وأن المطلوب من تلاوته تدبره، وفهم معانيه، ولذلك أمر الله بترتيله والترسل فيه، ليتجلى أنوار البيان من مشارق تبصرته، ويتحلى بآثار الإيمان من حقائق تذكرته (٣).

ويؤكد على هذا المعنى الأستاذ حسن الهضيبى – رحمه الله – فيقول: ليست العبرة فى التلاوة بمقدار ما يقرأ المرء، وإنما العبرة بمقدار ما يستفيد، فالقرآن لم ينزل بركة على النبى ﷺ بألفاظه مجردة عن المعانى، بل إن بركة القرآن فى العمل به، واتخاذه منهجًا فى الحياة يضىء سبيل السالكين. فيجب علينا حين نقرأ القرآن أن يكون قصدنا من التلاوة أن نحقق المعنى المراد منها، وذلك بتدبر آياته وفهمها والعمل بها (٤).

ختمتان للقرآن!!

بناء على ما سبق، يتضح لنا أنه ليس هناك أى مبرر لمن يطالب بأن تكون هناك ختمتان للقرآن ... ختمة قراءة لإنهاء الورد دون النظر للمعنى، وختمة للتدبر والتى يمكن أن تستغرق عدة سنوات.

ولعل ما قيل فى الصفحات السابقة، مع التركيز على معرفة الهدف الأسمى من نزول القرآن ومدى حاجتنا إليه على مستوى الأمة ومستوى الفرد... لعل هذا كله يرد على من يطرح هذا التصور.

---

(١) اقتضاء العلم العمل، ص (٧٥).

(٢) مقدمة فى أصول التفسير، ص (٧٥).

(٣) قاعدة فى فضائل القرآن، ص (٥٤).

(٤) مقالات الإسلاميين فى رمضان، ص (٤٢٦).

فأى هدف سيسعى القارىء إلى تحقيقه وهو يقرأ بدون تدبر؟ وما النفع الذى سيعود عليه من ذلك؟ وهل ستحقق له قراءة الحناجر فقط التغيير المنشود الذى ينتظره من القرآن؟

لو كانت القراءة لمجرد الثواب المترتب عليها فقط، لكان من الأولى أن نقوم بأعمال أكثر ثواباً من قراءة القرآن مثل ما رواه ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك، له الملك، وله الحمد يحيى ويميت، وهو حى لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شىء قدير، كُتب له ألف ألف حسنة، ومُحى عنه ألف ألف سيئة، ورُفع له ألف ألف درجة، وبُنى له بيت فى الجنة»**(١).

ولسنا نعنى بذلك التقليل من شأن الثواب المترتب على قراءة القرآن، بل نعنى إعادة النظر فى طريقة تعاملنا معه، فقيمة القرآن وبركته الحقيقية تكمن فى معانيه، ولأن اللفظ وسيلة لإدراك المعنى كان التوجيه النبوى بالإكثار من تلاوته، وتحفيز الناس على ذلك من خلال الثواب الكبير المترتب على قراءته.

ومثال ذلك الأب الذى يرصد مكافأة لابنه إن استمر فى المذاكرة عدة ساعات، هو بالتأكيد لا يقصد مجرد جلوسه على المكتب والنظر فى الكتب دون فهم ما تحتويه، بل هدفه من وراء ذلك تشجيع ابنه على المذاكرة بذهن حاضر ليتحقق له النجاح.

فإذا ما نظرنا إلى الهدف الأسمى من نزول القرآن، وربطنا بينه وبين ما رتب الشارع الحكيم على قراءته من ثواب عظيم، لوجدنا أن من أهداف هذا الثواب تشجيع المسلمين على دوام الاقتراب منه حتى يهتدوا بهداه، ويستشفوا بشفائه... أما أن نقترب منه وليس لنا هدف إلا الثواب، دون الالتفات إلى المعنى المقصود من الخطاب، فمما لا شك فيه أننا بذلك التعامل الشكلى سنخسر كثيراً، ولن يحقق فينا القرآن مقصوده.

ولعل السبب من وراء مطالبة البعض بختمة للتدبر وختمة لإنهاء الورد هو استشعارهم صعوبة التدبر، وعدم القدرة على تجاوز عدة آيات فى لقائهم مع القرآن... فهذه عقبة أخرى سيتم تناولها بمشيئة الله فى الصفحات القادمة.

دفع شبهة:

فإن قال قائل: ولكننا قرأنا أن فلاناً من السلف كان يختم القرآن فى الليلة الواحدة مرة ومرتين، وفلان كان يختم القرآن فى رمضان ستين ختمة، فلماذا لا نفعل مثلهم؟!

---

(١) حسن، رواه الإمام أحمد فى مسنده، والترمذى وابن ماجه، والحاكم فى مستدركه وصححه وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (٦٢٣١).

هذه الأخبار – لو صحت – فلا يمكن أن نستدل بها على جواز اتخاذ هذه الطريقة كوسيلة نحقق بها مقصود القرآن، قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

فنصوص القرآن واضحة فى أهمية تدبره عند قراءته أو الاستماع إليه ليكون التدبر وسيلة للفهم والتأثر ثم العمل، يقول تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩].

ولأن فهم مقصود الخطاب لابد أن يلازم قراءة القرآن، كان توجيه الرسول ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص بألا يختم القرآن فى أقل من ثلاث معللاً ذلك بقوله ﷺ:

«لا يفقهه من يقرؤه فى أقل من ثلاث» (١).

والأمر الآخر أننا فى هذه الصفحات نتحدث عن كيفية الانتفاع بالقرآن كهادٍ إلى الله وإلى صراطه المستقيم وكمصنع للتغيير، ومما لا شك فيه أن تحقيق هذه الأهداف يستلزم القراءة الهادئة المتأنية المترسلة.

الوسائل والغايات:

ومما يلحق بهذه العقبة قول البعض بأن الله عز وجل تعبدنا بالوسائل، ولم يطلب منا النظر للأهداف والمقاصد، فمن يقرأ بألفاظه فقط، دون النظر لمقصد نزوله فسيصل إليه دون تكلف، وكذلك فإنه بمجرد الصوم والامتناع عن الطعام والشراب سيتحقق مقصود الصوم، وكذلك الصلاة وسائر العبادات.

فإن كان الأمر كذلك، وأن مجرد قراءة القرآن بألفاظه فقط دون تدبر سيحقق لصاحبه الهدف الذى نزل لأجله القرآن، فلماذا إذن فُضِّلت سور عن سور مثل سورة الإخلاص والتى تعد قراءتها بثلث القرآن...

هل لألفاظها فقط كان التفضيل، أم بما تحمله من معان عظيمة؟!! وهل من قرأها بلسانه فقط سيحقق المقصد من تفضيلها؟!

ولو كان الأمر كذلك لاستوى المصلون فى درجاتهم عند الله طالما حققوا شروط وواجبات الصلاة بأجسامهم دون قلوبهم.

---

(١) سبق تخريجه.

ألم يقل ﷺ **(إن الرجل لينصرف، وما كتب له عُشر صلاته، تُسعها ،ثُمنها، سُبعها، سُدسها ،خُمسها، رُبعها، ثُلثها، نصفها)** (١).

وكذلك الدعاء.. فما قيمة رفع اليدين بالدعاء والقلب غافل لاه؟!

يقول ﷺ: **«واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»** (٢).

ويذكرنا القرآن بأهمية تحصيل التقوى فى الحج كمقصد أساسى له.

يقول تعالي: ﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ**﴾ [الحج:٣٧].

وغير ذلك من الأدلة التى تحثنا على تحرى الخشوع والتقوى وحضور القلب مع العبادات وإلا ضاع جهد صاحبها، قال ﷺ: **«رب قائم حظه من قيامه السهر، ورب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش»** (٣).

ومع هذا كله فخير دليل على عدم صحة هذا القول هو الواقع، فنحن نقرأ القرآن منذ سنوات وسنوات وختمناه مرات ومرات، وكان كل همنا الانتهاء من الورد أو السورة دون الالتفات إلى المعنى ... فماذا غيرَّ القرآن فينا؟

ويؤكد على هذا المعنى ابن القيم فيقول رحمه الله:

ولا ريب أن مجرد القيام بأعمال الجوارح من غير حضور ولا مراقبة، ولا إقبال على الله: قليل المنفعة، دنيا وأخرى.. فإنه – وإن كثر – متعب غير مفيد. فهكذا العمل الخارجى القشورى بمنزلة النخالة كثيرة المنظر قليلة الفائدة. فإن الله لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها (٤).

ويقول: فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها. وإنما تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب. فتكون صورة العملين واحدة. وبينهما فى التفاضل كما بين السماء والأرض. والرجلان يكون مقامهما فى الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض(٥).

---

(١) رواه أبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه بنحوه.

(٢) رواه الترمذى والحاكم وابن حبان عن أبى هريرة مرفوعًا، وأورده الألبانى فى السلسلة الصحيحة ح (٥٩٤).

(٣) صحيح، رواه الطبرانى عن ابن عمر وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ح (٣٤٩٠).

(٤) تهذيب مدارج السالكين، ص (١٥٣).

(٥) المصدر السابق، ص (١٨٨).

العقبة الثانية

الخوف من تدبر القرآن

ثانية العقبات التى ينبغى أن نجتازها بسلام (الخوف من تدبر القرآن) فمبدأ الدخول إلى عالم القرآن بتدبره وتفهمه، والعمل بمقتضاه، يشكل عقبة عند البعض، ومبعث خوف هؤلاء إما لاستشعارهم عدم أهليتهم لذلك، أو خوفهم من الوقوع تحت طائلة حديث رسول الله ﷺ « .. **ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**» (١).

أما شعور البعض بعدم أهليته لتدبر القرآن فهذا من تلبيسات الشيطان ليصرفنا عن مصدر السعادة والهدى، فالقرآن لا يخاطب فئة من الناس، بل هو للرجل والمرأة، والعالم والأمى، والعربى والأعجمى.. إنه خطاب للعامة والخاصة.

قال تعالى: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ [الفرقان: ١].

ولو كان هذا الكتاب لا يخاطب إلا العلماء، ما طالبنا الله عز وجل بتدبره.

يقول القرطبى فى قوله تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ٨٢].

يقول: ودلت هذه الآية وقوله تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [محمد: ٢٤]، على وجوب التدبر فى القرآن ليُعرف معناه. فكان فى هذا رد على فساد قول من قال: لا يؤخذ من تفسير إلا ما ثبت عن النبى ﷺ (٢).

ويؤكد على ذلك المعنى ابن هبيرة فيقول: ومن مكايد الشيطان تنفير عباد الله عن تدبر القرآن، لعلمه أن الهدى واقع عند التدبر، فيقول: هذه مخاطرة، حتى يقول الإنسان: أنا لا أتكلم فى القرآن تورعًا (٣).

---

(١) رواه الترمذى وقال: هذا حديث حسن رقم (٤٠٢٣)، وأخرجه الطبرى فى تفسيره وصححه الشيخ أحمد شاكر.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٥/١٨٧).

(٣) تدبر القرآن للسنيدى ص (٤٨) نقلاً عن ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٣/٢٧٣).

انتبه:

ويطلق ابن القيم تحذيراً شديداً يساعدنا على اجتياز تلك العقبة فيقول: ومن قال: إن له تأويلاً لا نفهمه ولا نعلمه، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه، ففي قلبه منه حرج (١).

... نعم قد تضيق المعانى وتتسع حسب معارف الشخص ومستوى إدراكه، فالقرآن حمال أوجه - كما قال علي بن أبى طالب رضى الله عنه - ولكن تبقى النقطة الجوهرية ألا وهى مقدار تأثر القلب بما يدركه العقل... فقد يفهم عالم من العلماء مفاهيم كثيرة ويدرك بعقله معانى عميقة حول آية من الآيات، ولكنها تظل حبيسة عقله، فلا ينتفع بها قلبه.

وفى المقابل قد يفهم رجل عادى، ذو ثقافة محدودة آية من الآيات بفهم بسيط، ومع ذلك فإن هذه الآية بهذا الفهم قد تؤثر في قلبه، وتهز وجدانه.. فالعبرة بما يحدثه القرآن فى القلب كما قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [الزمر:٢٣].

وتفاضل الناس عند ربهم ليس بكم المعارف التى فى عقولهم، ولكن بمقدار التقوى التى فى قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٣].

تأمل معى ما حدث لهذا الأعرابى عندما كان فى مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام فاستمع منه قوله تعالي: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ** ۝٧ **وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]، فقال: يا رسول الله، أمثقال ذرة؟ قال: «**نعم**». فقال الأعرابى: واسوأتاه ثم قام وهو يقولها، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد دخل قلب الأعرابى الإيمان**»(١).

معنى التحذير من القول فى القرآن:

أما بالنسبة لخوف البعض من أن يقول فى القرآن برأيه فيقع فيما حذر منه رسول الله ﷺ كما جاء فى الحديث فيرد عليه د. يوسف القرضاوى بقوله:

والجواب عن الحديث - إن صح -أنه محمول على وجهين:

(١) التبيان فى أقسام القرآن فصل (٦٠)، ص (١٤٤).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور عن المطلب بن عبد الله بن حنطب.

الأول: أن يراد بالرأى الهوى، فهو يجر القرآن جراً لتأييد ما يهواه وما يميل إليه (١)، فلا يجوز ولا يليق ولا يقبل أن يكون القرآن تابعاً لمذهب فى الفقه، أو نحلة فى الكلام، أو مقولة فى الفلسفة أو شطحة فى الصوفية (٢).

والثانى: أن يكون معنى الحديث: أن يهجم على تفسير القرآن دون أن يتأهل له بما يلزم من أدوات التفسير وشروط المفسر (٣).

وبديهى أن المتدبر، المتفكر فى القرآن يختلف عن المفسر، فالمتدبر يبحث عن الهداية والشفاء فى القرآن، لذلك فالمعنى هو مقصوده، أما المفسر فيقف عند كل كلمة ليشرح معناها ويستخرج وجوه الإعجاز والبيان فيها، وقد يستخرج منها أحكاماً شرعية، وهذا مما لا شك فيه وظيفة العلماء المتخصصين والمؤهلين لهذا العلم.

التلقى المباشر من القرآن:

إذن فلا خطورة من التلقى المباشر من القرآن بعد أخذ هذه الضوابط فى الاعتبار، والتأكد بأننا لا نأخذ من القرآن أحكاماً شرعية بطريقة مباشرة نلزم بها أنفسنا أو الآخرين، بل علينا الرجوع إلى كتب التفسير والفقه إذا ما أردنا معرفة تلك الأحكام. **(فتفسير مراد الله واستنباط الأحكام الشرعية هما منزلة خاصة بالعلماء والمفسرين أما الفهم والاعتبار والتذكر والاتعاظ فلا عذر لأحد فى تركه)** (٤).

ويجتهد الصنعانى – رحمه الله – فى بيان حجج يرد بها على من سلك هذا المسلك، وملخص ما قال: إن الله – سبحانه – كمَّل عقول العباد، ورزقهم فهم كلامه، ثم إن فهم كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية عند قرعها الأسماع لا يحتاج معناها إلى علم النحو، ولا إلى علم الأصول، بل فى الأفهام والطباع والعقول ما يجعلها تسارع إلى معرفة المراد، فإن من قرع سمعه قوله تعالى: ﴿**وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ١١٠]، يفهم معناه من دون أن يعرف أن (ما) أداة شرط، و(تقدموا) مجزوم بها لأنه شرطها (وتجدوه) مجزوم بها لأنه جزاؤها، ومثلها كثير.

ثم إنك ترى العامة يستفتون العالم ويفهمون كلامه وجوابه وهو كلام غير معرب فى الأغلب، بل تراهم يسمعون القرآن فيفهمون معناه ويبكون لقوارعه وما حواه، ولا

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن العظيم ليوسف القرضاوى، ص (٢١٠).

(٢) المصدر السابق، ص (٢٥٨).

(٣) المصدر السابق، ص (٢١٠).

(٤) تدبر القرآن للسنيدى بتصرف يسير، ص (٤٩).

يعرفون إعراباً ولا غيره، بل ربما كان موقع ما يسمعونه فى قلوبهم أعظم من موقعه فى قلوب من حقق قواعد الاجتهاد، وبلغ الذكاء والانتقاد.

ثم إن هؤلاء العامة يحضرون الخطب فى الجمع والأعياد، ويذوقون الوعظ ويفهمونه ويفتت منهم الأكباد، وتدمع منهم العيون، فيكثر منهم البكاء والنحيب.

ثم إنك تراهم يقرءون كتباً مؤلفة من الفروع الفقهية ويفهمون ما فيها، ويعرفون معناها، ويعتمدون عليها ويرجعون فى الفتوى والخصومات إليها.

فيا ليت شعرى! ما الذى خص الكتاب والسنة بالمنع عن معرفة معانيهما، وفهم تراكيبهما ومبانيهما والإعراض عن استخراج ما فيهما، حتى جعلت معانيهما كالمقصورات فى الخيام، وقد ضربت دونها السجوف، ولم يبق لنا إليهما إلا ترديد ألفاظهما والحروف، وأن استنباط معانيهما قد صار حجراً محجوراً وحرماً محرماً محصوراً (١).

ماذا قال صاحب الظلال؟

ولأهمية التعامل المباشر مع القرآن يقول الأستاذ سيد قطب فى مقدمته لتفسير سورة الرعد: وإننى لأهيب بقراء هذه الظلال، ألا تكون هى هدفهم من الكتاب إنما يقرءونها ليدنوا من القرآن ذاته. ثم ليتناولوه عند ذلك فى حقيقته، ويطرحوا عنهم هذه الظلال(٢).

وعندما سئل الإمام الشهيد حسن البنا عن أفضل التفاسير للقرآن قال: (قلبك) فقلب المؤمن لا شك هو أفضل التفاسير لكتاب الله تبارك وتعالى (٣).

وليس معنى هذا هو ترك هذا التراث الضخم من التفاسير العظيمة التى تركها علماء الأمة على مر العصور، فالتفسير بلا شك يعين على زيادة الفهم، وإزالة الإشكاليات أمام العقل، ومعرفة الحكم الشرعى المستنبط من الآيات...

ومع أهمية الرجوع إلى التفسير لمعرفة هذه الأمور وغيرها، إلا أنه ليس شرطاً للانتفاع الحقيقى بالقرآن كمنهج حياة يعظ صاحبه، ويذكره بما ينبغى أن يتذكره، ويزيد إيمانه، ويعينه على مواجهة متغيرات الحياة... وهذا هو أهم دور للقرآن.

---

(١) تدبر القرآن للسنيدى، ص (٤٨، ٤٩) نقلاً عن إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، ص (٣٦)، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية، الجزء الأول بتصرف يسير.

(٢) فى ظلال القرآن، (٤/ ٢٠٣٩).

(٣) نظرات فى التربية والسلوك، ص (١١٩).

العقبة الثالثة

مفهوم التدبر وطبيعته

البعض يتصور أن معنى التدبر: إعمال العقل فى كل كلمة من كلماته، والتدقيق الشديد فيها، والغوص فى معانيها.. هذا التصور يجعل من التدبر عملية شاقة لايستطيع أحد أن يستمر عليها، وفى الوقت ذاته فإنها لا تحقق مقصوده. فتدبر القرآن وسيلة لدوام التذكر بما هو مطلوب منا، ومن خلاله تتضح الرؤية لطريق الهدى، وبه يتعظ القلب فيزداد إيمانًا وتقوى.

قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا** ﴾ [طه:١١٣].

فليس المقصد من تدبر القرآن إظهار أنواع الإعجاز البيانى واللغوى، وإمتاع العقل بما فيه من أدب وتاريخ وقصص- وإن كان كل هذا من محتوياته- بل المقصد الأساسى هو المعنى الذى يخرج به قارئه مما يجعله فى حالة من دوام التذكر، كما قال تعالى: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ [ص:٢٩].

ويضع الشيخ عبد الرحمن السعدى القاعدة لقارئ القرآن فيقول: «وأن يجعل المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة له»(١).

ولو تفهمنا هذه القاعدة لأصبح التدبر سهلاً ميسراً لمن جعله وسيلة للبحث عن الهدى والشفاء.. فلن يقف القارئ عند كل كلمة يقرؤها بل سيتفكر فى المعنى الإجمالى للآية وارتباطها بجوانب الهداية، وأما ما أشكل عليه فهمه فليتركه لعالمه سبحانه وتعالى، وغالبًا ما سيجد ما يوضحه فى موضع آخر بالقرآن، وحسبنا فى ذلك ما قاله رسول الله ﷺ: «**إن القرآن لم ينزل يُكذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وماجهلتهم فردوه إلى عالمه**»(٢).

قال عبد الله بن مسعود: إن للقرآن منارًا كمنار الطريق، فما عرفتم منه فتمسكوا به، وما يشبه عليكم- أو قال شُبّه عليكم- فكلوه إلى عالمه(٣).

ويقول الحسن البصرى فى قوله تعالى: ﴿ **يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ** ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه(٤).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن- المقدمة، ص (٣).

(٢) حسن، رواه الإمام أحمد وابن ماجه.

(٣) أخرجه أبو عبيد فى كتاب فضائل القرآن، ص (٩٩).

(٤) فضائل القرآن للرازى، ص (١٢٦).

طبيعة التدبر :

حينما كنا نسمع أو نقرأ عن أهمية تدبر القرآن والعمل بما فيه، كانت الرغبة تجتاح النفس والشوق يملؤها لذلك، ولكن ما إن نبدأ فى التطبيق إلا ونقف عاجزين أمام الآيات فلا نكاد نستخرج منها شيئًا، تمامًا كمن يقال له : انظر إلى الشمس وقت الغروب وتفكر فيها . . هو يتمنى أن يخرج بشيء من خلال رؤيته لهذا المنظر الجميل، ولكنه يقف جامداً أمامه لأنه لم يتعلم كيف يتفكر ، وعمَّ يبحث .

ونفس الأمر إذا ما طُلب من شخص ما إبداء رأيه فى سيارة أو بناية أو ميزانية شركة وهو بعيد عن هذه المجالات فرأيه إن أبداه لن يفيد أحداً طالما أنه لايعرف أين سيحرك عينيه، وعمّ سيبحث، وهذا هو ما يحدث معنا، فعندما يُطلب منا التدبر واستخراج خواطر من الآيات، تجد الواحد منا يتأمل فيها ويشعر أنها تحتوى على معان عظيمة لكنه لايخرج منها بشيء يُذكر لأنه لم يتعلم كيف يتدبر.

. . نعم قد يتأثر الوجدان بالقراءة والسماع فى بعض الأوقات ولكن هذا التأثر غالبًا ما يكون مع آيات الوعيد التى من شأنها مخاطبة الوجدان واستثارة المشاعر، وهذا وحده لايكفى.

فلنبحث عن الهدى :

القرآن ملىء بأنواع كثيرة من العلوم وأوجه الإعجاز. فمن قرأه وهو يبحث عن البلاغة وجدها، ومن قرأه وهو يبحث عن القصة عثر عليها، ومن قرأه وهو يبحث عن الإعجاز العلمى ظفر به، ومن قرأه وهو يبحث عن الهداية وجدها، ومن قرأ القرآن وهو لايبحث فيه عن شيء لن تراه غالبًا وقد استوقفه شيء منه، ألم يقل سبحانه وتعالى عن قصة يوسف : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ** ﴾ [يوسف :٧].

فالسائلون المهتمون بالموضوع هم الذين سينتفعون بما فى القصة من آيات وعبر.

من هنا نقول إن من تبين له بوضوح الهدف الأساسى من نزول القرآن، ستسهل عليه قراءة القرآن وتدبره، وسيخرج منها بالكثير من جوانب الهداية، أما من لم يتضح له هذا الهدف ولم يستشعر عظيم حاجته إليه فسيصعب عليه التدبر، ولن يستطيع المداومة عليه لعدم وجود قضية تشغله يعلم أن فى القرآن حلها، وحسبنا فى ذلك قول ابن تيمية : من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه تبين له الحق(١).

---

(١) تدبر القرآن للسنيدى، ص (١١١، ١١٢) نقلاً عن العقيدة الواسطية، ص (١٠٣) شرح هراس.

العقبة الرابعة

ضرورة ختم القرآن فى مدة محددة

البعض منا يظن أن من الواجب عليه ختم القرآن فى شهر مثلاً، وأنه لو تأخر عن ذلك فقد يقع فى الإثم أو الحرج.

.. نعم ينبغى علينا أن ننشغل بالقرآن ، وألا يمر علينا يوم دون القراءة فى المصحف ، ولكن ليس معنى هذا أن من الواجب ختم القرآن فى مدة محددة، فالصحابة مع شدة اعتنائهم بالقرآن وانشغالهم به إلا أنهم كانوا يتفاوتون فى مدة ختمه.

أخرج ابن أبى داود عن مكحول قال: كان أقوياء أصحاب رسول الله ﷺ يقرءون القرآن فى سبع وبعضهم فى شهر وبعضهم فى شهرين وبعضهم فى أكثر من ذلك(١).

وليس معنى هذا أننا سنمكث فترات طويلة لنختم القرآن، بل العكس هو المطلوب فعلى قدر انشغالنا بالقرآن والإكثار من تلاوته وتدبره سيكون النفع المتحقق بمشيئة الله، وعلى قدر ما نعطى للقرآن من أوقاتنا وعقولنا وقلوبنا يعطينا من خيره ونوره.

وعندما نعطى القرآن المساحة الزمنية الكبيرة من يومنا سنتمكن- بعون الله- أن نختمه فى أقل من شهر، ولكن دون أن يكون هناك سيف مسلط على رقابنا يدعونا للمسارعة فى القرآن كى لا نتجاوز المدة التى حددناها فى أذهاننا.

هب أنك فى يوم من الأيام استوقفتك آية وأنت تقرأ القرآن، فهزّت مشاعرك، وذقت معها حلاوة الإيمان كلما رددتها، هل تترك هذه اللحظات السعيدة - لحظات الإيمان - خوفًا من عدم إنهاء وردك المحدد؟!

فإن قال قائل: ولكن وجود حد أقصى لمدة الختم فى ذهنى يشحذ همتى لمداومة القراءة.. إن كان الأمر كذلك فلا بأس منه شريطة ألا يخل بمقصود القراءة، وألا يكون كذلك على حساب ترديد الآيات والتجاوب معها، والأفضل أن نجعل هذا الأمر من باب الاستئناس وليس من باب الإلزام.

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى، (١/١٠٤).

العقبة الخامسة

أمراض القلوب

يظن البعض أن علاج القلب من أمراضه لابد أن يسبق العودة إلى القرآن، فالقلب المريض لايمكنه الانتفاع الحقيقى بالقرآن- كما يقولون- ويرفع هؤلاء شعار «التخلية قبل التحلية» فإن كان الأمر كذلك، فما هو إذن دور القرآن؟!

ألم يصفه الله عز وجل بأنه شفاء لما فى الصدور ؟!

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٥٧].

فالقرآن نعم الدواء لأمراض القلوب، فقوة نوره تخترق الظلمات فتبددها، وتحرق ما يقابلها من شهوات وشبهات، كما قال تعالى: ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ [الأنبياء: ١٨].

.. نعم فى البداية سيجد نور القرآن بعض الصعوبة فى الدخول إلى القلب بسبب حجب الظلمات التى تراكمت عليه من آثار المعاصى والغفلات، ولكن هذه الحجب لن تستطيع أن تقاوم طويلاً دخول أشعة نور القرآن إلى القلب إذا ما داوم الشخص على قراءته بتدبر، وكلما دخل النور إلى جزء من أجزاء القلب انطرد منه الهوى، وعادت إليه الحياة مرة أخرى، إلى أن يأتى الوقت الذى يعود فيه القلب إلى كامل صحته.

قال تعالى: ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ** ﴾ [الرعد :١٧].

وفى المقابل فإن من يتبنى طريقة التخلية قبل التحلية فسيظل يراوح فى مكانه، ولن يصل إلى مبتغاه من تطهير قلبه أولا من أمراضه، لأنه كلما فتش فى نفسه سيجد آفات وعيوبًا، وكلما تخلص من واحد منها ظهر آخر، ولن يستطيع أن يدعى فى يوم من الأيام أنه تخلص منها جميعًا.

العقبة السادسة

مفهوم الانشغال بالقرآن

إن الانشغال الحقيقى بالقرآن يعنى أول ما يعنى الانشغال بمعانيه، ومواعظه، وجوانب هدايته، وامتلاء القلب بها وتمكنها من العقل الباطن واللاشعور، فينعكس ذلك على خواطر العبد واهتماماته.

- والانشغال بالقرآن يعنى كذلك الانشغال بحمل معانيه إلى الناس، ودعوتهم إلى الجلوس المباشر معه، وإزالة الحاجز النفسى بينهم وبينه.

- ومن أهم صور الانشغال بالقرآن تعريف الناس بربهم عن طريقه، وذلك من خلال ربط آيات القرآن بآيات الكون، والاستدلال منها على الخالق العظيم، ذى الجلال والإكرام.

قال تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت: ٥٣].

- ومن صور الانشغال بالقرآن كذلك: السعى الدءوب على تحويله إلى واقع ملموس فى حياة الناس ليصبح دستور الأمة، فتسود أخلاقه جوانب المجتمع، وهذا لن يتم إلا بوجود جيل قرآنى يدعو إلى الله بأفعاله قبل أقواله.

- ومع هذا كله يأتى كذلك الانشغال بدوام تلاوته بالليل والنهار، وحفظ آياته ولكن بمثل الطريقة التى كان يحفظ بها الصحابة، فيتعلم الإيمان وجوانب الهداية من الآيات قبل حفظها.

إن أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته هم أولئك الذين فهموا مراد الله من إنزاله القرآن، فانكبوا عليه وعملوا به، ودعوا الخلق إليه، ولعل هذا هو ما كان يقصده الحسن البصرى بقوله: إن أولى الناس بهذا القرآن من اتبعه وإن لم يكن يقرؤه(١).

ومن لوازم تصحيح هذا المفهوم عدم حصر معنى قول الرسول ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» على تعلم وتعليم أحكام التجويد فقط، فكما قال ابن تيمية: دخل فى

---

(١) أخرجه أبو عبيد فى فضائل القرآن، ص (٦٣).

قوله ﷺ «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» تعليم حروفه ومعانيه جميعًا ، بل تعلم معانيه هو المقصد الأول من تعلم حروفه وذلك الذى يزيد الإيمان، كما قال جندب بن عبد الله، وعبد الله بن عمر وغيرهما: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا، وأنتم تعلمتم القرآن ثم تتعلمون الإيمان.. ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة(١).

(١) تدبر القرآن للسنيدى ، ص (١٠٤ ، ١٠٥) نقلا عن مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٠٤).

الفصل السابع

كيف نعود إلى القرآن؟

قبل الحديث عن وسائل الانتفاع بالقرآن، وحُسن العودة إليه، هناك بعض العوامل التى من شأنها أن تهيئ المرء لحسن الدخول إلى عالم القرآن..

هذه العوامل هى:

- الدعاء والتضرع إلى الله.
- وضع القرآن على أعلى سلم الأولويات.
- سلامة النطق والترتيل.

الدعاء والتضرع إلى الله:

لعل ما قيل فى الصفحات السابقة يرسم إلى حد كبير الصورة المثلى فى التعامل مع القرآن، ويزيل بعضًا من الموروثات القديمة عنه، ومع هذا فإن العامل الرئيسى لدخول الواحد منا إلى عالم القرآن، وتذوقه، واستخراج كنوزه هو شدة احتياجه إليه ورغبته فيه.

ليتخيل كل منا أن مرضًا قد أصاب عضوًا من أعضائه، وأن البحث عن الدواء الذى يشفيه قد أعياه، وأن معاناته من ذلك المرض تزداد يومًا بعد يوم، وفى هذه الأثناء يخبره أحد المقربين إليه بأن هناك كتابًا به وصفة أكيدة لمرضه وقد جُربت من قبل وأتت بنتائج مبهرة، لكنه لايعلم فى أى صفحات الكتاب تكون هذه الوصفة.

تُرى، ماذا سيكون رد فعل هذا المريض؟! كيف سيتعامل مع هذا الكتاب، وكيف ستكون طريقة قراءته له؟ وهل سيسمح لذهنه أن يسرح فى سطر منه؟ وإذا ما سرح هل سيتابع القراءة أم سيعود لقراءة ما سرح فيه مرة أخرى؟!

بالتأكيد أن هذا المريض سيكون فى أعلى درجات اليقظة والاستعداد للتلقى والتنفيذ فى كل لقاء له مع هذا الكتاب، وسيقرؤه مرات ومرات حتى يصل لدوائه.

فإن كان هذا فيما يخص البدن الذى سيبلى بعد الموت، فلماذا لا نفعل ذلك مع القلب، وهو محل نظر الله عز وجل، وبقدر سلامته تكون النجاة يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

ما الذى يجعلنا ننتظر، والكتاب الذى يحوى الشفاء والهداية بين أيدينا، ميسر

للذكر.. متواجد فى كل بيت.. لاينقصنا إلا أن نمد أيدينا فنتناوله ونقبل عليه بشعور الملهوف، الراغب فى الهدى، كما قال ابن تيمية رحمة الله: من تدبر القرآن طالباً الهدى منه تبين له طريق الحق.

وقال القرطبى: فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يحب الله، أفهمه الله كما يحب، وجعل له فى قلبه نوراً(١).

فنقطة البداية- إذن - تبدأ منى ومنك وهى استشعار الحاجة للعودة إلى القرآن.. هذا الشعور لابد أن نترجمه فى هيئة دعاء وتضرع إلى الله بأن ييسر لنا فهم كتابه، وحسن تدبره، والعمل بما فيه..

ندعوه سبحانه وتعالى بأن يمنع عنا كل ما يثبط عزائمنا ويبعدنا عن التدبر.. نلح عليه بأن يحبب إلى قلوبنا تدبر القرآن، وأن يعلمنا علم القرآن، وينور قلوبنا بنوره.. ولاينبغى أن يدفعنا تأخر الإجابة إلى اليأس وترك الدعاء، وحسبنا فى ذلك ما قاله ﷺ: **«يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول: قد دعوت فلم يُستجب لى»**(٢).

الإمداد بحسب الاستعداد:

أخى :لنعلم جميعاً أن الإمداد بحسب الاستعداد، كما قال تعالى: ﴿ **إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا** ﴾ [الأنفال : ٧٠].

فالبداية من العبد : ﴿ **إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا** ﴾ [النساء: ٣٥].

فلنُرِ الله من أنفسنا خيراً، ولنكثر من الاستغفار والتوبة، ولنداوم قرع الباب وإن رُددنا.

قال رجل لذى النون وهو يعظ الناس: ياشيخ، ما الذى أصنع، كلما وقفت على باب من أبواب المولى صرفنى عنه قاطع المحن والبلوى.

قال له: يا أخى كن على باب مولاك كالصبى الصغير مع أمه، كلما ضربته أمه ترامى عليها، وكلما طردته، تقرب إليها، فلايزال كذلك حتى تضمه إليها(٣).

---

(١) تدبر القرآن للسنيدى، ص (١١٢٣).

(٢) متفق عليه عن أبى هريرة- رضى الله عنه-.

(٣) بحر الدموع لابن الجوزى، ص (٦٥).

القرآن والأولويات:

ومع الدعاء والتضرع إلى الله، علينا أن نضع القرآن فى أعلى سُلم أولوياتنا واهتماماتنا، وأن نُعطيه أفضل أوقاتنا، ونمكث معه أطول فترة ممكنة، فعلى قدر ما سنعطى للقرآن سيعطينا ويكرمنا ، فهو كما أخبر عنه الله عز وجل ﴿ **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ** ﴾ [الواقعة :٧٧].

.. إن طول المكث مع القرآن من شأنه أن يسرع خطى التغيير المنشود.. تغيير العقل وإعادة تشكيله وبناء اليقين الصحيح فيه، وتغيير القلب وطرد حب الدنيا والهوى منه، وترويض النفس على لزوم الصدق والإخلاص.

فكتاب هذا شأنه ينبغى أن نُسلم له زمام قيادتنا ونترك أنفسنا له، وأن نكثر من الجلوس وعقد اللقاءات معه كلما سنحت الفرصة لذلك. وليس معنى هذا إهمال العلوم الأخرى وإنما تفريغ الوقت الأكبر لهذا الكتاب.

وعلينا كذلك أن نهيئ مكانًا للقائه بعيدًا عن الضوضاء، وعن كل ما من شأنه أن يشوش على الذهن ويُقلل التركيز.

سلامة النطق:

ومن الأمور التى ينبغى أن نتقنها منذ البداية: تصحيح النطق بالقرآن وتعلم أحكام التجويد، فسلامة النطق من الأهمية بمكان لفهم القرآن، وكذلك أحكام التلاوة والتى من شأنها أن تيسر على القارئ ترتيل القرآن.

فإن قال قائل: ولماذا الترتيل ألا يكفى سلامة النطق؟

إن للترتيل الكثير من الفوائد فضلاً عن كونه واجبًا على قارئ القرآن، فمن فوائده: إطالة مدة قراءة الآية مما يتيح للعقل فرصة فهم المقصود منها.

يقول ابن حجر فى شرحه لباب الترتيل فى القراءة فى صحيح البخارى: أى تبين حروفها، والتأنى فى أدائها ليكون أدعى إلى فهم معانيها(١).

ومن فوائده كذلك: أنه يستثير المشاعر، وكما قيل فى الصفحات السابقة، فإن العبرة ليست بالتدبر العقلى فقط ولكن لابد أن يصحب ذلك انفعال وجدانى ليحدث التأثر

---

(١) فتح البارى (٩/١٠٨، ١٠٩).

القلبى ويزداد الإيمان. لذلك نجد التوجيه النبوى بالتغنى بالقرآن أى بتحسين الصوت وتزيينه، وكذلك التباكى عند قراءته لمن لم يستطع البكاء.. كل ذلك لتستثار المشاعر ويتحقق المقصود من القراءة.

قال ﷺ: «**إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به، فمن لم يتغن به فليس منا**»(١).

إن تلاوة القرآن حق تلاوته كما يقول أبو حامد الغزالى هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعانى، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزعاج والائتمار.. فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ(٢).

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (١٣٢٧) – كتاب إقامة الصلاة– عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه.
(٢) إحياء علوم الدين (١/٤٤٢).

الوسائل العملية للانتفاع بالقرآن

مما لاشك فيه أن من يقبل على القرآن مستشعراً أنه خطاب من الله عز وجل موجه إليه، يحمل فى طياته مفاتيح سعادته فى الدنيا والآخرة، وأنه القادر بإذن الله على تغييره مهما كان حاله.. لا شك أن هذا الشخص لايحتاج إلى من يدله على وسائل تعينه على الانتفاع بالقرآن، لأنه بهذا الشعور قد أصبح مهيأً للتغيير الذى يقوم به القرآن.

أما وإنه من الصعب علينا فى البداية أن نكون كذلك بسبب ما ورثناه من أشكال التعامل الخاطئ مع القرآن، مما جعل هناك حاجزاً نفسيًا بيننا وبينه يمنعنا من الانتفاع الحقيقى به.

أما والأمر كذلك فإن عودتنا إلى القرآن تحتاج إلى وسائل سهلة وعملية ومحددة تعين صاحبها على إدارة وجهه للقرآن، والإقبال على مأدبته، والدخول إلى عالمه ومصنعه بصورة متدرجة.

هذه الوسائل تنطلق من قاعدة (تيسير القرآن للذكر) ، فمادام القرآن ميسراً للذكر فلابد أن تكون وسائل الانتفاع به ميسرة للجميع.

هذه الوسائل على سبيل الإجمال هى:

١- المداومة على التلاوة اليومية.

٢- تهيئة الجو المناسب.

٣- التركيز مع القراءة.

٤- أن نجعل المعنى هو المقصود.

٥- التجاوب مع القراءة.

٦- ترديد الآية التى تؤثر فى القلب.

٧- استصحاب معنى من المعانى الإيمانية.

وقبل أن نتحدث فى شرح وبيان هذه الوسائل هناك أمر جدير نلفت الانتباه إليه، وهو أن هذه الوسائل السبع تخص القارئ للقرآن، أما السامع فعليه أن يأخذ منها قدر المستطاع لتتحقق له الفائدة المرجوة من هذه المعجزة الكبرى.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ويقول ابن عباس: من سمع آية من كتاب الله عز وجل تُتلى كانت له نوراً يوم القيامة(١).

أولا: المداومة على التلاوة اليومية:

لكى يحقق القرآن هدفه معنا - فيهدينا إلى الصراط المستقيم، ويثبتنا عليه، ويغير ما بأنفسنا، ويجعلنا فى حالة دائمة من التبصر والتذكر - لابد أن تستمر ماكيناته فى العمل بصورة دائمة، ولفترة طويلة، فالتغيير القرآنى تغيير بطىء، هادىء، متصاعد، ولكى يؤتى ثماره لابد من استمرارية التعامل معه، فلايصح ترك قراءة القرآن يوماً من الأيام وإلا تضاءل الأثر المترتب عليها.

فلنداوم على التلاوة اليومية ولفترات طويلة، ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً.. ولتكن تلاوة مرتلة، بطيئة، ولايكن هم القارئ متى سينتهى من السورة أو الورد، بل ليكن همه متى يتجاوب قلبه، ويخشع فؤاده، وتدمع عيناه.

أما بالنسبة للأوقات المفضلة للقراءة فيقول عنها النووى فى كتابه الأذكار:

اعلم أن أفضل القراءة ما كان فى الصلاة.. وأما القراءة فى غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل،والنصف الأخير منه أفضل من الأول، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة، وأما قراءة النهار فأفضلها ما كان بعد صلاة الصبح، ولا كراهة فى القراءة فى وقت من الأوقات ولا فى أوقات النهى عن الصلاة (٢).

ثانيًا: تهيئة الجو المناسب

لكى يقوم القرآن بعمله فى التغيير لابد من تهيئة الظروف المناسبة لاستقباله، ومن ذلك وجود مكان هادئ بعيد عن الضوضاء يتم فيه لقاؤنا به، فالمكان الهادئ يُعين على التركيز وحسن الفهم وسرعة التجاوب مع القراءة، ويسمح لنا كذلك بالتعبير عن مشاعرنا إذا ما استثيرت بالبكاء والدعاء.

ومع وجود المكان الهادىء علينا أن يكون لقاؤنا بالقرآن فى وقت النشاط والتركيز لا فى وقت التعب والرغبة فى النوم، ولا ننسى الوضوء والسواك.

---

(١) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص (٦٢).

(٢) الأذكار للنووى (١٥٦).

ثالثًا: التركيز مع القراءة:

نريد أن نقرأ القرآن كما نقرأ أى كتاب- كحد أدنى- فعندما نشرع فى قراءة كتاب أو مجلة أو جريدة فإننا نعقل ما نقرؤه، وإذا ما سرحنا فى موضع من المواضع عُدنا بأعيننا إلى الوراء، وأعدنا قراءة ما فات على عقولنا، وما دفعنا إلى ذلك إلا لنفهم المراد من الكلام.

هذا ما نريده مع القرآن: أن نقرأه بحضور ذهن، فإذا ما سرحنا فى وقت من الأوقات علينا أن نعيد الآيات التى شرد فيها ذهننا.

.. نعم فى البداية سنجد صعوبة فى تطبيق هذه الوسيلة بسبب تعودنا على التعامل مع القرآن كألفاظ مجردة من معانيها، ولكن بالمداومة والمثابرة سنعتاد بمشيئة الله القراءة بتركيز وبدون سرحان.

ولنتذكر دائمًا قول الله عز وجل: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ولكن فى بعض الأوقات قد نبدأ القراءة فنجد أنفسنا وقد غلبها النعاس، وأصبحنا لاندرى ما نقول، فماذا نفعل إذا ما فشلنا فى جمع الذهن مع القراءة بعد العديد من المحاولات؟

علينا عندئذ التوقف بنية العودة إليها فى وقت آخر.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه، فلم يدر مايقول فليضطجع**»(١).

وليكن مقياس استمرارنا فى القراءة قول الحسن بن على رضى الله عنهما: «اقرأ القرآن ما نهاك فإذا لم ينهك فلست تقرأه»(٢).

رابعًا: أن نجعل المعنى هو المقصود:

البعض منا عندما يشرع فى تدبر القرآن، تجده يقف متمعنًا عند كل لفظ فيه مما يجعل التدبر عملية شاقة عليه، وما يلبث إلا أن يملّ فيعود أدراجه إلى الطريقة القديمة فى القراءة دون فهم ولا تدبر.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) أخرجه أبو عبيد فى فضائل القرآن، ص (٦٣).

فكيف لنا إذن أن نقرأ القرآن بتدبر وسلاسة فى نفس الوقت؟!

الطريقة السهلة لتحقيق هذين الأمرين معًا هو أن نأخذ المعنى الإجمالى للآية، وإذا وجدنا بعض الألفاظ التى لا نعرف معناها، فعلينا أن نتعرف على المعنى من السياق، كمن يقرأ مقالاً باللغة الإنجليزية مثلاً ولايعرف معانى بعض الكلمات، فإنه يفهم المعنى الإجمالى من السياق، وهذا ما أرشدنا إليه رسول الله ﷺ حين قال: «**إن القرآن لم ينزل يُكذب بعضه بعضًا، بل يصدق بعضه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم فردوه إلى عالمه**»(١).

وبهذه الطريقة تصبح قراءة القرآن سهلة وميسرة للجميع.

فعلى سبيل المثال إذا ما قرأنا قوله تعالى: ﴿ **وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا** ﴾ [الكهف: ٤٠]، ولاندرى معنى حسبانًا ولا زلقًا لكننا نفهم من السياق أن عقابًا ومصيبة قد تحدث لهذا البستان.

وعندما نقرأ قوله تعالى: ﴿**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**﴾ [عبس: ٣١]، ولا ندرى معنى أبًا، فالسياق يدلنا على أنه نوع من أنواع المأكولات.

.. نعم إن معرفة معانى الكلمات الغريبة تساعدنا على زيادة الفهم، ولكن علينا ألا نجعل عدم معرفتها عائقًا يحول بيننا وبين الاسترسال فى القراءة، والتركيز معها والتأثر بها.

وليس معنى هذا عدم النظر فى كتب التفسير ومعانى الكلمات، فمما لاشك فيه أن للتفسير دورًا كبيرًا فى حسن الفهم، وله أيضًا دور أساسى فى معرفة الأحكام الشرعية، والتى لا ينبغى علينا أن نستنبطها بمفردنا من القرآن، فتاريخ الأمة الإسلامية يشهد بانحراف الكثير ممن استنبط تلك الأحكام بمفرده من القرآن دون أن يكون مؤهلاً لذلك مثل الخوارج وغيرهم.

ومع هذا الدور العظيم للتفسير إلا أنه ينبغى أن يكون له وقته الخاص به، وغير مرتبط بوقت القراءة، فنحن لانريد أن نخرج من لقائنا بالقرآن بزيادة الفهم فقط، ولكن نريد القلب الحى كذلك، وهذا يحتاج إلى اللقاء المباشر مع القرآن، والسماح بقوة تأثيره أن تنساب داخلنا ونتصاعد من خلال الاستمرار فى القراءة، والاسترسال مع الآيات والتجاوب معها.

(١) حسن، رواه الإمام أحمد فى مسنده وابن ماجه فى سننه.

حسن الابتداء والوقف:

من الأمور المعينة كذلك على فهم المعنى الإجمالى للآيات: حُسن الابتداء والوقف.

يقول النووى رحمه الله: ويُستحب للقارئ إذا ابتدأ من وسط السورة أن يبتدئ من أول الكلام المرتبط بعضه ببعض، وكذلك إذا وقف عند المرتبط وعند انتهاء الكلام، ولايتقيد فى الابتداء ولا فى الوقف بالأجزاء والأحزاب والأعشار، فإن كثيراً منها فى وسط الكلام المرتبط (١).

خامساً: التجاوب مع القراءة:

القرآن خطاب مباشر من الله عز وجل لجميع البشر: لى، ولك، ولغيرنا...هذا الخطاب يشمل من ضمن ما يشمل: أسئلة وأجوبة، ووعداً ووعيداً، وأوامر ونواهى.

فعلينا أن نتجاوب مع الخطاب القرآنى بالرد على أسئلته، وتنفيذ مايمليه من تسبيح أو حمد أو استغفار أو سجود، وعلينا كذلك التأمين على الدعاء، والاستعاذة من النار، وسؤال الجنة، ولقد كان هذا من هدى رسول الله ﷺ، وصحابته الكرام..

عن عبد الله بن السائب قال: أخّر عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- العشاء الآخرة فصُليت ودخل فكان فى ظهرى، فقرأت: ﴿**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا**﴾ حتى أتيت على قوله: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾ فرفع صوته حتى ملأ المسجد: أشهد(٢).

وسمع عبد الله بن مسعود رجلاً قرأ: ﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**﴾ [الإنسان: ١].

قال: إى وعزتك، فجعلته سميعًا بصيرًا، وحيًا وميتًا(٣)

وعن أبى عمارة الكوفى- عبد خير- أنه سمع عليًا قرأ فى الصلاة: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾ فقال: سبحان ربى الأعلى(٤).

فعلينا المداومة على استخدام هذه الوسيلة والتى سنجد لها أثرًا عظيمًا بمشيئة الله فى دوام يقظة العقل، وسرعة تجاوب القلب.

---

(١) الأذكار للنووى، ص (١٦٣).

(٢) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص (١٤٩).

(٣) المصدر السابق، ص (١٥٠).

(٤) المصدر السابق، ص (١٥٣).

سادساً: ترديد الآية التى تؤثر فى القلب:

إن يقظة العقل وقت قراءة القرآن أمر نستطيع تحصيله بشيء من المجاهدة وبعون من الله عز وجل، أما حضور القلب، وتجاوبه مع القراءة، وتأثره بها، فهذا أمر لانملكه، وقد يمضى بنا وقت ليس بالقصير حتى يبدأ القلب فى التحرك مع القراءة، فإلى أن تنفذ أنوار الآيات من بين أغلفة الظلمات، وتصل إلى القلب علينا بالمداومة على القراءة المتأنية مع يقظة العقل، والتضرع إلى المولى عز وجل بأن يفتح قلوبنا لكلامه، وبمشيئة الله لن يطول انتظارنا، فبمرور الوقت سيبدأ القلب بالتأثر والانفعال ولو مع آية من الآيات.

فإذا ما تم ذلك فى لحظة من اللحظات.. فماذا نفعل حينئذ؟!

ينبغى علينا أن نستثمر وجودها أحسن استثمار، وأن نعض عليها بالنواجذ، فهذه اللحظات من أهم أوقات حياتنا، ومن خلالها يتم التغيير المنشود.

فمعنى تأثر القلب بآية من الآيات هو دخول نور هذه الآية إلى القلب، وتفاعله معه، وإحلاله محل ظلمة فيه، ويعنى كذلك زيادة الإيمان، وهذا قلما يحدث للواحد منا وخاصة فى البداية، لذلك علينا ألا نضيع تلك الفرصة إذا ما جاءتنا، ولنعمل على دخول أكبر قدر من النور إلى قلوبنا بترديد تلك الآية مرات ومرات، وعلينا ألا نملّ من ذلك طالما وُجد التجاوب، وشيئًا فشيئًا ستتبدد الظلمات من القلب ويُطرد الهوى، ويصبح النور هو الغالب فيه، فيسهل عليه التأثر بالآيات، ويزداد لينه وخشوعه بها.

يقول ابن القيم: ولو علم الناس ما فى قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية هو محتاج إليها فى شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة.. فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر، ولا تفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلى الصباح(١).

وبترديد الآية التى تؤثر فى القلب تتولد داخل العبد طاقة، عليه أن يُحسن تصريفها بالبكاء والدعاء كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** ﴾ [الإسراء: ١٠٧- ١٠٩].

(١) مفتاح دار السعادة (١/٥٥٣، ٥٥٤).

سابعًا: استصحاب معنى من المعانى الإيمانية:

الوسائل السابقة تكفى بمشيئة الله وعونه لحسن العودة إلى القرآن، والانتفاع بمعجزته إذ ما داومنا عليها، وصبرنا على ذلك.

وهناك وسيلة أخرى من شأنها أن تُسرع الخطى نحو الدخول إلى عالم القرآن، ودائرة تأثيره القوية على الإنسان.

هذه الوسيلة هى استصحاب معنى من المعانى الإيمانية، والبحث عن مدلوله من خلال رحلتنا مع القرآن.

فإذا ما كانت رحلة المسلم مع كتاب ربه تبدأ من سورة الفاتحة وتنتهى بسورة الناس، فلتكن من سمات كل رحلة البحث عن معنى جديد من المعانى التى تؤسس القاعدة الإيمانية فى القلب وتبنى اليقين فى العقل.

ومما لاشك فيه أن استصحاب معنى إيمانى أو أكثر فى كل رحلة سيكون له بعون الله وفضله أبلغ الأثر فى تذوق حلاوة الإيمان، فإذا ما صاحب ذلك ربط مدلول هذا المعنى بواقع الحياة فلا تسل عما سيحدثه من قرب حقيقى، ومعرفة، وأنس بالله عز وجل، والتمتع بالحياة الطيبة التى وعد الله بها عباده وأولياءه.

ومن فوائد استصحاب المعنى الإيمانى فى قراءتنا للقرآن أنه يثير الهمة ويقوّى العزيمة.

يقول ابن القيم:

فإن سيرهم- أى السائرين إلى الله- إنما هو على الشواهد، فمن كان لاشاهد له فلا سير له، ولا طلب ولا سلوك له.

قالت عائشة رضى الله عنها: «من رأى رسول الله ﷺ فقد رآه غاديًا رائحًا، لم يضع لبنة على لبنة ولكن رُفع له علم فرآه فشمر إليه».

ولايزال العبد فى التوانى والفتور والكسل، حتى يرفع الله عز وجل- بفضله ومنه- علمًا يشاهده قلبه، فيشمر إليه ويعمل إليه[1].

---

(١) مدارج السالكين (٣/٣٦٦، ٣٦٧).

وإليك أخى القارئ بعضًا من العناوين المقترحة لهذه المعانى الإيمانية، لك أن تستصحب منها ما تشاء فى رحلتك المباركة مع كتاب ربك(١).

التعرف على الله (الواحد):

وذلك من خلال تتبع آيات القرآن التى تتحدث عن صفة الوحدانية، وآثارها فى الكون، وكيف يثبت القرآن أن للكون إلهًا واحدًا لاشريك له، وأنه هو الله، ونتتبع كذلك تفنيد الآيات لمزاعم المبطلين الذين يدعون أن هناك إلهًا آخر للكون، أو أن لله شريكًا فى ملكه.

مثل قوله تعالى: ﴿ **هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ** ﴾ [لقمان: ١١].

وقوله: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [الأحقاف: ٤].

التعرف على الله (المنعم):

فمن خلال رحلتنا مع القرآن نبحث عن الآيات التى تتحدث عن نعم الله عز وجل علينا، ونعمل على إحصائها قدر الإمكان، والتعرف على جوانبها المختلفة كنعم الإيجاد، والإمداد، والحفظ، والتسخير، والاجتباء والهداية، والثبات، والتوفيق، والأمن والستر، مثل قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا** ﴾ [النور: ٢١]

وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ** ﴾ [الملك: ٢٣]

وقوله تعالى: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ** ﴾ [الجاثية: ١٣].

التعرف على الله (الرحيم):

وذلك من خلال تتبع الآيات التى تتحدث عن الرحمة الإلهية وآثارها فى الكون والنفس، مثل قوله تعالى: ﴿ **فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ [الروم: ٥٠].

---

(١) نسأل الله عز وجل أن يتم علينا فضله وييسر لنا إتمام كتاب (رحلة الإيمان من خلال القرآن) وسيكون فيه الحديث بالتفصيل عن هذا الموضوع بمشيئة الله مع عرض الكثير من المعانى الإيمانية فى القرآن وربطها بالواقع.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

التعرف على الله (القوى) (الجبار):

الله عز وجل وصف نفسه بأنه: القوى، الجبار، شديد العقاب، ذو انتقام، فهو سبحانه يعاقب الظالمين والعاصين، وينتقم منهم.. ولقد أفاض القرآن فى الحديث عن مظاهر تلك الصفة سواء كان ذلك على مستوى الأمم أو على مستوى الأفراد.

مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢].

وقوله: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

جوانب الفقر إلى الله:

فقرنا إلى الله عز وجل فقر ذاتى ومطلق يشمل جميع أسباب ومقومات الحياة، والهداية، والثبات، والتوفيق، والعصمة من الفجور، ولقد تم بيان بعض أوجه الفقر إلى الله بشىء من التفصيل فى الفصل الثالث (القرآن والتغيير- محور النفس).

قال تعالى على لسان نبيه إبراهيم: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك: ٣٠].

التعرف على الله (العزيز) (القهار):

كل ما فى الكون خاضع لله عز وجل منقاد لإرادته، لايتحرك متحرك، إلا بحول الله وقوته، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فإرادته الكونية غالبة، فعال لما يريد، غالب على أمره.. فالعبد يريد شيئًا والله يريد شيئًا آخر، فلا يحدث إلا ما يريده الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٦].

وقال تعالى: ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الشورى: ١٢].

وقال عز وجل: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ [الأنفال: ٤٤].

الدنيا دار امتحان:

تم بفضل الله شرح هذا العنوان فى الفصل الثانى (جوانب الهداية فى القرآن).

ويتضمن هذا المعنى: بداية خلق آدم، عداوة الشيطان للإنسان، الدنيا قاعة امتحان، أدوات الامتحان والإجابات الصحيحة، تسجيل الإجابات والرقابة على الامتحان، نهاية الامتحان، يوم الحساب وتوزيع الشهادات، وذهاب الناجحين إلى الجنة، وسوق الراسبين إلى النار.

مثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٨، ٤٩].

الرسائل الإلهية:

الله عز وجل أخبرنا بأنه لاتدركه الأبصار، ولا سبيل لمعرفته إلا من خلال ما أتاحه لنا من معلومات عنه سبحانه. هذه المعلومات أودعها الله فى مخلوقاته، وجعلها آيات تدل عليه، وتُذكر به.

قال تعالى: ﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [الروم: ٢٤].

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

كيف ربى الله عز وجل رسولنا ﷺ على تمام العبودية؟

فنتأمل فى رحلتنا المباركة مع القرآن التوجيهات التى وجهت لحبيبنا المصطفى عليه الصلاة والسلام، ونعمل على أن ننهل منها لنقتفى أثره ﷺ فى عبوديته لربه.

مثل قوله تعالى: ﴿ **لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً** ﴾ [الإسراء: ٢٢].

وقوله: ﴿ **فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [طه: ١٣٠– ١٣٢].

السنن الاجتماعية الحاكمة للحياة:

من خلال هذا المعنى نتعرف من القرآن على القوانين التى تجلب للناس السعادة أو الشقاء، ولقد تم شرح هذا الموضوع بشىء من التفصيل فى الفصل الثانى (جوانب الهداية فى القرآن).

.. هذه القوانين كالمعادلات الرياضية، لابد أن يكتمل الطرف الأول ليتحقق الطرف الثانى، والملاحظ أن الطرف الأول دائماً يكون هو العبد وما يفعله.

ومن هذه القوانين قانون النصر والهزيمة والتيسير والتعسير، سلب النعم، هلاك الأمم، الحياة الطيبة..

مثل قوله تعالى: ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [محمد: ٧].

وقوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١].

وقوله: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ** ﴾ [الليل: ٥ –٧].

الفصل الثامن

معينات على الطريق

انطلاقًا من حسن الظن بالله – سبحانه وتعالى– نوقن بأننا إذا ما أحسنَّا البداية وأخذنا بالوسائل العملية المشار إليها فسنجد ثماراً سريعة، وتحسناً ملحوظًا فى علاقتنا بالقرآن، ومع ذلك فهناك معينات من شأنها أن تهيئ القلب أكثر وأكثر لاستقبال القرآن وسرعة الانتفاع به، وخروجه من دائرة التدبر العقلى إلى الانفعال الوجدانى والتحرك القلبى ليقوم القرآن بأهم دور له، فيُصبح القوة الدافعة والمحركة لفعل كل ما يرضى مولانا، وترك ما يبغضه.

أولاً: كثرة ذكر الموت:

لكى يحدث القرآن فى القلب أثره المطلوب، لابد من تهيئة القلب لاستقباله بزيادة مستوى الخوف من الله فيه.. هكذا أخبرنا سبحانه وتعالى: ﴿ **سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ** ﴾ [ق: ٤٥].

وقال ﷺ: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»(١).

ويعلق المناوى فى فيض القدير على هذا الحديث فيقول:

فكل من خاف الردى أو فوت ما يتمنى لايركن إلى الراحة ولا ينتظر الصباح، بل يبادر إلى الحركة والسفر ولو كان بالليل، فأخبر ﷺ أن الخوف من الله هو المقتضى للسير إليه بالعمل الصالح والمشار إليه بالإدلاج..»(٢).

من هنا يتضح لنا أن القلب الخائف الوجل من الله عز وجل هو المؤهل للانتفاع بالقرآن، فالخوف بصفة عامة يجعل الإنسان مرهف الحس تجاه كل ما من شأنه تخفيف مسببات خوفه، فيستقبل أى موعظة أو نصيحة استقبال الباحث عن طوق النجاة، فيتعلق بها، ولايتركها إلا إذا استفاد منها استفادة كاملة.. أما الآمن فهو على عكس ذلك لأنه لايستشعر بأن هناك خطراً قريباً منه.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ** ﴾ [النازعات: ٢٦]

---

(١) صحيح أورده الألبانى فى الجامع الصغير ح (٦٢٢٢) والسلسلة الصحيحة ح (٢٣٣٥).

(٢) فيض القدير (٦/ ١٥٩).

ووسائل زيادة الخوف من الله كثيرة، أهمها ذكر الموت والتوقع الدائم لقدومه، كما قال ﷺ: «**أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت، فإنه لم يذكره أحد فى ضيق العيش إلا وسعه عليه، ولاذكره فى سعة إلا ضيقها عليه**»(١).

ولقد اشتكت امرأة إلى عائشة – رضى الله عنها – قسوة قلبها. فقالت: أكثرى ذكر الموت يرق قلبك، ففعلت فرق قلبها.

ومن الوسائل المعينة للتذكر الدائم للموت: زيارة المقابر، وتغسيل الموتى، واتباع الجنائز، وكتابة الوصية، ودوام مطالعتها.

ومنها أيضًا: شراء الكفن ومشاهدته كل فترة، والجلوس مع الأهل لترتيب أمورهم فيما بعد الموت.

وكذلك زيارة المستشفيات ومشاهدة المرضى وأصحاب العاهات.

ومنها أيضًا: الاستماع إلى المواعظ والقراءة فى كتب الرقائق كالتوهم للحارث المحاسبى، و«بحر الدموع، وصفة الصفوة، وبستان الواعظين» لابن الجوزى، والداء والدواء لابن القيم(٢).

وبالمداومة على هذه الوسائل وغيرها ترق القلوب فينزل عليها القرآن نزوله الصحيح فتزداد به تذكرًا وخشوعًا.

قال تعالى: ﴿**وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام: ٥١].

---

(١) حسن. أخرجه البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع ح (١٢١١).

(٢) قد يقول البعض إن كثرة ذكر الموت بهذه الطريقة قد تتسبب فى الإصابة بمرض نفسى.. والرد على هؤلاء يتلخص فى أن المقصد من كثرة ذكر الموت: هو الاستعداد العملى لاستقباله، أى أنه يدفع إلى العمل الإيجابى.. أما أن يصبح الشخص سلبيًا، يسمع ويقرأ عن الموت دون أن يعمل ما يؤدى به إلى حسن الاستعداد له فهذا هو المعرض لمثل هذه الأمراض النفسية، فمما لاشك فيه أن حسن الاستعداد الفعلى لاستقبال الموت يسكب فى النفس راحة وطمأنينة عكس من يكثر الاستماع والقراءة والتخيل عن الموت دون استعداد له، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ [السجدة: ١٥]، فهؤلاء المؤمنون دفعهم تذكرهم لآيات الله إلى العمل مباشرة، وهذا هو المراد من كثرة ذكر الموت، والله أعلم.

ثانيًا: ومن المعينات أيضًا: قيام الليل:

تدبر القرآن، والنظر فى معانيه من شأنه أن يملأ القلب بمعانى العبودية والمعارف الإلهية، فهى تعرفنا بالله عز وجل وبحقوقه علينا، وتورث فى القلب ما تستوجبه هذه المعرفة من تعظيم ومهابة وحب ، وخوف ، ورجاء، وثقة، وطمأنينة به سبحانه، وتدفعنا إلى الإنابة والتوبة إليه، ودوام التوكل عليه..

ويعرفنا القرآن كذلك بأنفسنا، وبمدى ضعفها، وفقرها الذاتى والمطلق لله عز وجل فى كل طرفة عين، وينبهنا على ضرورة الحذر من الشيطان، وأهمية الاستعاذة بالله من شره، وغير ذلك من جوانب الهداية القرآنية.

وبعد أن يمتلئ القلب بكل هذه المعانى والمعارف متى سيُخرجها؟ وكيف يعبر عنها؟

لابد إذن من وسيلة عملية تساعد العبد على استفراغ هذه المعانى، ومدلولاتها من القلب.. وما من وسيلة أعظم من الصلاة.. وأفضل صلاة بعد المكتوبة قيام الليل، فهو مركبة السائرين، تقربهم، وتدنيهم من حبيبهم ومولاهم.

قال تعالى: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾ [الإسراء: ٧٩].

ففى القيام نقرأ القرآن، ونعيش مع معانيه، ونردد الآية التى تؤثر فينا، وفى الركوع نسبح الله ونثنى عليه، وفى السجود نحمده سبحانه ونمجده ونتذلل له ، ونريه ذل مقامنا وانكسارنا بين يديه، وافتقارنا الماس إليه..

نستغفره من ذنوبنا وتقصيرنا فى القيام بحقوقه، ونسأله من خيرى الدنيا والآخرة، ونفضى إليه بمدى شوقنا إلى لقائه ونقدم له طلباتنا، ونشكو له همومنا.

إنها لحظات رائعة، تلك اللحظات التى يناجى العبد فيها مولاه وحبيبه، ويستشعر فيها بالقرب منه، والأنس به، وأنه ليس مقطوع النسب، فله مولى يحميه، وملك يؤويه، وكافٍ يكفيه شر ما أهمه وأغمه.

.. ما أجملها من لحظات وأنت تكتب رسائلك إلى مولاك بدموعك، وتنتظر منه الإجابة.

ومما لاشك فيه أنه مما يعين على استثارة هذه المشاعر الفياضة تجاه المولى عز وجل طول القيام بالقرآن، وإجالة النظر فى معانيه ليكون السجود معبراً عما تأثر به القلب، فلنحرص على القيام كل ليلة، مهما كانت شواغلنا، ولا بأس من القراءة من المصحف، فلقد أجاز العلماء ذلك فى صلاة التطوع.

أخرج ابن أبى داود فى كتابه (المصاحف) عن ابن أبى مليكة أن عائشة زوج النبى ﷺ كان يؤمها غلامها ذكوان فى المصحف(١).

وعن الحسن أنه كان يعجبه إذا كان مع الرجل ما يقرأ، أن يردده، ويؤم به فى رمضان، وإن لم يكن معه شيء أن يقرأ فى المصحف(٢).

وعن عطاء أنه كان لايرى بأساً أن يقرأ فى المصحف فى الصلاة(٣).

ثالثًا: دراسة السيرة النبوية:

السيرة النبوية هى التطبيق العملى للقرآن، ودراستنا للسيرة من هذا المنطلق تزيد من فهمنا للقرآن، وتفتح لنا آفاقًا جديدة لفهم ومعايشة الآيات.

كذلك فإن معرفة أسباب النزول تؤدى نفس المعنى، فهى تعد بمثابة نماذج تطبيقية للآيات، وتعين كذلك على استشعار الظروف التى نزلت فيها فيقوى التعايش والتفاعل معها، ومن ثم التأثر بها والاستفادة منها.

رابعًا: التفسير:

القرآن الكريم كفيل- بإذن الله - أن يُحدث التوازن المطلوب فى شخصية المسلم إذا ما أقبل عليه بروح الشغوف الباحث عن الهداية، وسيكون له عاصماً من الزلل، وسيفسر بعضه بعضًا، فما يجمله فى مكان يُفصِّله فى مكان آخر، وسيصحح له- بدوام قراءته وتدبره- أى مفهوم خاطىء قد يتطرق إلى عقله، فأغلب آيات القرآن واضحة يسهل فهمها، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [القمر: ١٧]

ومع هذا كله علينا أن نرجع إلى التفاسير لفهم آية لا نستطيع فهمها، أو لتصحيح مفهوم خاطىء، أو لفتح آفاق جديدة أمام عقولنا، أو لمعرفة حكم شرعى دلت عليه الآيات.. فلا يصح لنا أن نستنبط الأحكام الشرعية مباشرة من القرآن مهما بلغت درجة

(١) أخرجه ابن أبى داود فى المصاحف، برقم (٧٩٧)، ص (٦٥٨).

(٢) المصدر السابق برقم (٨٠١)، ص (٦٥٩).

(٣) المصدر السابق، برقم (٨٠٤)، ص (٦٦٠).

انشغالنا أو تأثرنا به طالما لم نستكمل الأدوات اللازمة لذلك من علوم شرعية كثيرة بيَّنها العلماء فى حديثهم عن شروط المُفسِّر للقرآن.

ولقد أجمل الإمام حسن البنا – رحمه الله – الكثير من معينات الفهم لكتاب الله بما فى ذلك التفسير فى إجابته عن سؤال لأحد الأشخاص.

يقول رحمه الله: فلقد سألنى أحد الإخوان عن أفضل التفاسير، وأقرب طرق الفهم لكتاب الله تبارك وتعالى؟

فكان جوابى على سؤاله هذا هذه الكلمة: (قلبك) فقلب المؤمن لاشك هو أفضل التفاسير لكتاب الله تبارك وتعالى. وأقرب طرائق الفهم أن يقرأ بتدبر وخشوع، وأن يستلهم الله الرشد والسداد، ويجمع شوارد فكره حين التلاوة، وأن يلمَّ مع ذلك بالسيرة النبوية المطهرة، ويُعنى بنوع خاص بأسباب النزول وارتباطها بمواضعها من هذه السيرة، فسيجد فى ذلك أكبر العون على الفهم الصحيح السليم.

وإذا قرأ فى كتب التفسير بعد ذلك، فللوقوف على معنى لفظ دق عليه، أو تركيب خفى أمامه معناه، أو استزادة من ثقافة تعينه على الفهم الصحيح لكتاب الله. فهى مساعدات على الفهم، والفهم بعد ذلك إشراق ينقدح ضوؤه فى صميم القلب.. ولاشك أن من أخذ بهذه الطريقة سيجد أثرها بعد حين فى نفسه ملكة تجعل الفهم من سجيته ونوراً يستضىء به فى دنياه وآخرته إن شاء الله (١).

خامسًا: الدعوة إلى الله:

من أهم أسباب فهم القرآن والتفاعل معه والشعور بأننا المخاطبون به: الحركة وبذل الجهد بين الناس لتبليغ دين الله، والعمل على إقامة شرعه، مع ما فى ذلك من صعوبات ومحن.

فالقرآن يُثبِّت القلوب، ويدحض الشبهات،ويُذكِّر بالثوابت والأولويات، ويحل المشكلات ويوضح الرؤية كلما علا الغبش وكثر الضباب فى الطريق.. هذا كله لايستطيع أن يدركه من أغلق الباب على نفسه ورضى بالقعود.

فهذا القرآن كما يقول سيد قطب رحمه الله: لايدرك أسراره قاعد، ولايعلم مدلولاته إلا إنسان يؤمن به ويتحرك به(٢).

---

(١) نظرات فى التربية والسلوك: مقالات لحسن البنا جمعها عصام تليمة، والفقرة السابقة وردت فى مقالة نشرت بمجلة الشهاب الشهرية، العدد الأول ١٤ نوفمبر ١٩٤٧ م، ص (١١٩، ١٢٠).

(٢) فى ظلال القرآن ٤ / ٢٠٣٨.

ويقول: إن هذا القرآن لايتذوقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة، ويواجه مثل تلك المواقف التى تَنَزل ليواجهها ويوجهها.

والذين يلتمسون معانى القرآن ودلالاته وهم قاعدون، يدرسونه دراسة بيانية أو فنية لايملكون أن يجدوا من حقيقته شيئاً فى هذه القعدة الباردة الساكنة بعيداً عن المعركة وبعيداً عن الحركة.. إن حقيقة هذا القرآن لا تتكشف للقاعدين أبداً (١).

إن القرآن هو خير زاد للصف المسلم الذى تعقد عليه الأمة آمالها.. وهو نعم الصديق الذى يخفف عن صديقه معاناته، ويملؤه بالأمل، ويشحذ همته للاستمرار فى مواجهة المعرضين عن الدعوة.. يذكره بأن ما يحدث له قد تكرر كثيراً مع أصحاب الدعوات ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

يقول سيد قطب رحمه الله: إن هذه الطلائع- طلائع البعث الإسلامى- فى حاجة إلى هذا القرآن تستلهمه وتستوحيه: تستلهمه فى منهج الحركة وخطواتها ومراحلها، وتستوحيه فيما يصادف هذه الخطوات والمراحل من استجابات، وماينتظرها من عاقبة فى نهاية الطريق.

والقرآن بهذه الصورة لايعود مجرد كلام يُتلى للبركة، ولكنه ينتفض حيًا يتنزل اللحظة على الجماعة المسلمة المتحركة لتتحرك به، وتتابع توجيهاته، وتتوقع موعود الله فيه.

ويستطرد قائلاً: وهذا ما نعنيه بأن هذا القرآن لايتفتح عن أسراره إلا للعصبة المسلمة التى تتحرك به لتحقيق مدلوله فى عالم الواقع. لا لمن يقرءونه لمجرد التبرك، ولا لمن يقرءونه لمجرد الدراسة الفنية والعلمية، ولا لمن يدرسونه لمجرد تتبع الأداء البيانى فيه.

إن هؤلاء جميعًا لن يدركوا من هذا القرآن شيئًا يذكر، فإن هذا القرآن لم يتنزل ليكون مادة دراسة على هذا النحو. إنما تنزل ليكون مادة حركة وتوجيه(٢).

فلنبحث عن العاملين للإسلام الداعين إليه، الذين يتحركون به حركة شاملة فنضع أيدينا فى أيديهم ونسير معًا وراء القرآن متجهين إلى الله عز وجل.

---

(١) فى ظلال القرآن (٤/ ١٨٦٤).

(٢) المصدر السابق (٤/ ١٩٤٨).

سادسًا: ومن المعينات كذلك: حلقات المدارسة:

قال ﷺ: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**»(١).

إن وجود حلقات المدارسة القرآنية من الأهمية بمكان لتعليم الناس كيف يدخلون إلى عالم القرآن فيهتدون بهداه، ويستشفون بشفائه.

هذه الحلقات وإن كانت منتشرة في المساجد هنا وهناك إلا أن مفهومها قد اختُزل على تعلم أحكام التجويد وتصحيح النطق فقط، وهذا الأمر -كما أشرنا سابقًا- مهم وضروري ولكنه لا يكفي لتعلُّم القرآن كما يريد الله عز وجل، بل هو بداية لابد أن يتبعها تعلم المعاني وجوانب الهدى والإيمان فيما يُتلى فيها من آيات، فيسهل على من يواظب عليها التعامل مع القرآن بمفرده.

في هذه الحلقات نتعرف على الله عز وجل أكثر وأكثر من خلال أسمائه الحسنى وصفاته العُلى وأفعاله، التي أكثر القرآن من ذكرها لنستدل بها عليه - سبحانه وتعالى- إلهًا واحدًا خالقًا، عزيزًا، رحيمًا، ودودًا، رءوفًا، غنيًا، حيًا، قيومًا..

.. وفيها نتدارس أسباب هلاك الأمم كعاد وثمود وقوم لوط، وبني إسرائيل، ولماذا فضلهم الله على العالمين فترة من الفترات؟ ثم غضب عليهم وجعل منهم قردة وخنازير؟ وغير أولئك من الأمم التي حكى عنها القرآن.

.. وفيها نتعرف على الكون المحيط بنا، ونتذكر قصة وجودنا على الأرض، ويوم الحساب، والجزاء، ومن خلالها نبحث عن واجبات العبودية وحقوق الله علينا، وحقوق العباد بعضهم على بعض.. ولا نقوم منها إلا وقد خرجنا بدروس مستفادة وواجبات عملية نعمل على الالتزام بها.

سابعًا: حفظ القرآن:

مما لاشك فيه أن حفظ القرآن من معينات تدبره، ولِمَ لا وهو مع صاحبه أينما كان، يستدعيه في أي لحظة ليتلوه، ويقف عند معانيه ويدخل إلى مأدبته.. يستشهد به في دعوته للناس وحركته بينهم، ويترنم بآياته ويعيش معها وهو يقف بين يدي الله عز وجل.

(١) صحيح، أخرجه أبو داود عن أبي هريرة وأورده الألباني في صحيح الجامع الصغير ح (٥٥٠٩).

إنها نعمة عظيمة، ومرتبة عالية، تمنح صاحبها شرفًا كبيراً فى الدنيا والآخرة.

أخرج أبو عبيد فى فضائل القرآن أن نافع بن الحارث الخزاعى تلقى عمر بن الخطاب بُعسْفان، وكان عمر استعمله على مكة، فسلم على عمر، فقال له: من استخلفت على البوادى؟ فقال نافع: استخلفت عليهم يا أمير المؤمنين ابن أبزى، قال عمر: ومن ابن ابزى؟ فقال نافع: هو من موالينا. فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارئ لكتاب الله تعالى، عالم بالفرائض. فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قال: **«إن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»**(١).

ومع هذا الفضل الكبير لحامل القرآن ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا مدلول ما يحمله هذا الاسم، كما نقله إلينا صحابة رسول الله ﷺ، ومر علينا فى صفحات هذا الكتاب، فهم أدرى الناس بصورة التعامل الصحيحة مع القرآن وكيفية حفظه.

إننا جميعًا - بلا استثناء- نشهد أن جيل الصحابة هو أفضل جيل ظهر على الأرض فى تاريخ الأمة الإسلامية، ونشهد كذلك بأن المنهج الذى صنعهم ورفعهم إلى هذه المرتبة هو القرآن، فلماذا لانتعامل معه كما تعاملوا؟

تُرى ما الذى سيحدث لو حذونا حذوهم فى طريقة تعلمهم وحفظهم للقرآن؛ فنبدأ بتعلم الإيمان قبل القرآن، فنستخرج من الآيات التى نريد حفظها ما فيها من جوانب الهداية ثم نستخلص منها واجبات عملية نلتزم بها فى حياتنا قدر المستطاع؟

قد يقول قائل: إننا بذاك سنمكث فترة طويلة فى حفظ السورة.

نعم سيحدث ذلك، ولكن ما الضرر الذى سيقع علينا، وما النفع الذى سيفوتنا إن حدث ذلك؟

ألم يكن هذا هو هدى الصحابة فى حفظ القرآن؟

إن حمل القرآن ليس بتعلم حروفه وحفظها فقط، بل بتعلم حروفه ومعانيه جميعًا- كما يقول ابن تيمية- بل تعلم معانيه هو المقصد الأول من تعلم حروفه، وذلك الذى يزيد الإيمان، كما قال جندب بن عبد الله، وعبد الله بن عمر وغيرهما: «تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا، وأنتم تعلمتم القرآن ثم تتعلمون الإيمان».. ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة (٢).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) مقدمة أصول التفسير لابن تيمية، ص (٧٤، ٧٥).

فلنحفظ القرآن بهذه الطريقة، ولا نستعجل إنهاء السورة فيكفى عشر آيات نتعلمها ونعيش معها ونطبق ما فيها قدر المستطاع ثم ننتقل إلى العشر التى تليها.

عن الحسن قال: مات عمر بن الخطاب ولم يجمع القرآن، قال: أموت وأنا فى زيادة أحب إلىّ من أن أموت وأنا فى نقصان. قال الأنصارى: يعنى نسيان القرآن(١).

تجربة مفيدة:

فإن قيل: وما العمل فيمن حفظ القرآن كله أو بعضه بطريقة حفظ حروفه فقط؟

من كان هذا حاله - وأغلبنا كذلك إلا من رحم الله - ما عليه إلا أن يبدأ من الآن فى فهمه، واستخراج جوانب الهداية منه، والتفقه فيه، وليجاهد نفسه على قراءته بترسل وتؤدة، وللشيخ محمد الغزالى تجربة مفيدة فى ذلك، يقول رحمه الله:

حفظت القرآن وعمرى عشر سنين.. وبداهة ما كنت أعى منه شيئاً.. والغريب أن هذه الطريقة فى الحفظ لألفاظ القرآن صرفنى عن معان كثيرة كنت أمر بها ولا أعرفها.. وأنا كبير أقرأ، ولكن لأنى حفظت القرآن دون فهم للمعنى أجد نفسى فى كثير من الأحيان، أمضى دون فهم للمعنى، لأن الحفظ كان يغلب على التدبر أو على إحسان الوعى، وما بدأت أفكر حتى أكرهت نفسى على أن أعود فأدقق النظر فى كل ما أقرأ، وأحمل نفسى على ترك هذه العادة التى ورثتها مع الحفظ(٢).

أما بالنسبة لتعهد القرآن والعمل على عدم نسيانه فهو أمر ضرورى، يلزمنا جميعاً، قال ﷺ: «**مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقّلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت**»(٣).

ولكن هذه المراجعة المستمرة للمحفوظ ينبغى أن تكون بقراءة يفهمها قارئها، والحد الأدنى فى ذلك ما قاله ابن عباس لأبى جمرة عندما أخبره بأنه سريع القراءة، وأنه يقرأ القرآن فى ليلة فقال له: لأن اقرأ سورة أحب إلىّ.. إن كنت لابد فاعلاً فاقرأ قراءة تسمعها أذنك ويوعها قلبك(٤).

---

(١) فضائل القرآن لأبى عبيد، ص (٢٠٤).

(٢) كيف نتعامل مع القرآن؟ لمحمد الغزالى، ص (٣٢).

(٣) رواه البخارى فى فضائل القرآن، ومسلم فى صلاة المسافرين، ومعقلة أى مشدودة بحبل.

(٤) فتح البارى (٩ / ١١٠) كتاب فضائل القرآن.

الصغار وحفظ القرآن:

لايخفى على أحد أن الأمة الإسلامية بحاجة ماسة إلى من يخرجها من النفق المظلم الذى تسير فيه..

إنها بحاجة إلى من يقودها وهو يحمل المصباح بإحدى يديه والدواء باليد الأخرى..

إنها باختصار تحتاج إلى جيل قرآنى ذاق حلاوة القرآن، فاختلط القرآن بلحمة ودمه، فشكّل شخصيته، وأنار قلبه، وهذا لن يتحقق إلا إذا بدأنا بأنفسنا وبأولادنا، فلا ينبغى أن نفوّت فرصة صفاء أذهانهم حتى نملأها بمعانى القرآن، كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: جردوا القرآن ليربو فيه صغيركم، ولا ينأى عنه كبيركم(١).

فلنبدأ معهم أمر القرآن من أوله ولنعمل على تأسيس القاعدة الإيمانية فى قلوبهم من خلاله، فنعرفهم بالله سبحانه وتعالى بما تحتمله عقولهم، ونطلب منهم أن يبحثوا فى القدر الذى سيحفظونه عما يعرفهم به، كالتعرف على الله المنعم، أو الرحيم مثلاً، ثم ننتقل معهم بعد ذلك إلى واجبات العبودية، ونرفع لهم على سبيل المثال شعار «احفظ الله يحفظك»، وكيف نستدل من القرآن على صحة هذا الشعار، ونربط بينه وبين حياتهم العملية، ونتحدث معهم كذلك عن الشيطان ثم نطلب منهم تعريفًا به، وبمداخله من خلال القرآن.. وهكذا فى بقية الجوانب العشر التى سبق الإشارة إليها فى الفصل الثانى بأسلوب سهل، شيق، قصصى، يراعى سنهم وقدراتهم.

ومما يساعد على ذلك تأكيدنا الدائم لأولادنا بأن المعنى هو المقصود من التلاوة، فلا بديل عن فهم المعنى لما سيتم حفظه، ولا داعى للاستعجال فى الكم، وليكن ماثلاً أمام أعيننا دومًا قول أبى الدرداء لمن جاء يبشره بأن ابنه قد جمع القرآن فقال له: اللهم غفرًا، إنما جمع القرآن من سمع له وأطاع(٢).

فلنجعل أبناءنا ممن يسمع للقرآن ويطيع، وهذا لن يتأتى إلا بتعلم الإيمان قبل القرآن، مما سيجعل فترة حفظ السورة طويلة - نسبيًا- وبخاصة فى البداية، لكننا سنكون قد استفدنا من إمكاناتهم وفطرتهم السليمة فى ترسيخ معانى القرآن وبناء تصوراتهم الصحيحة وشخصياتهم المتوازنة.. فهل هناك من يزهد فى هذه الثمار ولايتمناها لأبنائه؟

---

(١) فضائل القرآن لأبى عبيد ص (٣٢).

(٢) المصدر السابق، ص (١٣٣).

إن بناء اليقين الصحيح عند أبنائنا لمن أهم صور التربية الصالحة لهم، وسيعود نفعه – بمشيئة الله – عليهم وعلى أسرهم وأمتهم، والقرآن كفيل بذلك إذا ما أعطينا معانيه جل اهتمامنا، وربطنا بينها وبين الواقع، وجعلنا تشجيعنا لأولادنا مرتبطًا بمدى تعلمهم المعانى الإيمانية من القرآن وتطبيقها على أنفسهم، وليس معنى هذا أن نزهد فى أن يكون أبناؤنا من حفظة القرآن،ولكن المقصد هو أن نأتى أمر القرآن معهم من أوله، فنعلمهم الإيمان قبل الحفظ، فمن استطاع أن يُحفظ ابنه القرآن بهذه الطريقة فقد قدم لنفسه ولأمته خدمة عظيمة، ورفع للإسلام راية فى زمن قلت فيه راياته.

ماذا يقول الطرطوشى؟

يقول أبو بكر الطرطوشى فى كتابه «الحوادث والبدع»:

ومما ابتدعه الناس فى القرآن الاقتصار على حفظ حروفه دون التفقه فيه. ويقول: سُئل الإمام مالك عن صبى ابن سبع سنين جمع القرآن فقال: «ما أرى هذا ينبغى» وإنما وجه إنكاره ما تقرر فى الصحابة رضى الله عنهم من كراهة التسرع فى حفظ القرآن دون التفقه فيه.

وقد قال تعالى: ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** ﴾ [البقرة: ٧٨].

كانوا يحفظون التوراة ولايعلمون ما استودع الله تعالى فيها من الحكم والعبر، فوصفهم الله تعالى بأنه ليس عندهم من ذلك إلا الأمانى، والأمانى معناها: التلاوة.

وقال تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾ [الجمعة: ٥].

فشبَّه تالى القران من غير أن يفهمه كمثل الحمار يحمل أسفاراً.. فدخل فى عموم هذا من يحفظ القرآن من أهل ملتنا ثم لايفهمه ولايعمل به (١).

وأيضاً قد قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [المائدة: ٦٨]، أ. هـ (٢).

---

(١) أى أن الله نعت اليهود بذلك الوصف لأنهم لم يعملوا بما فى التوراة ولم يفهموها، وذلك الوصف ينطبق على من يتعامل مع القرآن بنفس طريقتهم.

(٢) الحوادث والبدع، ص (٢٠٦– ٢١٤) باختصار.

رأى البنا :

وللإمام حسن البنا رأى مهم فى مسألة تحفيظ القرآن للصغار، يقول رحمه الله :

تقرر فى أذهان الناس : أن تحفيظ القرآن جزء من منهج التعليم لأول أدواره إذ أن هذه السن هى وقت قوة الحافظة والذاكرة، ولا يتيسر حفظه فيما بعد ذلك، وصار هذا عرفًا يجد الناس فى مخالفته كثيرًا من الحرج، ويُخيّل إليهم أن ذلك ضياع لكتاب الله، وترى من جانب آخر أن اشتغال الطلبة بحفظ القرآن كله فى هذا السن يُفوت عليهم كثيرًا من استخدام مواهبهم العقلية، ويُعطل كثيرًا من قواهم النفسانية، ويرسم القرآن فى عقولهم وقلوبهم ألفاظًا لا معنى لها، ويُعودهم القراءة بدون تفكير ولا تدبر فى مستقبل حياتهم، فهذه الطريقة إن خرجتهم أوعية القرآن فقد حرمتهم لذة تدبره وثمرة التفكير فى معانيه ومقاصده.

والمشكل قديم، وقد عالجه أبو بكر بن العربى، وأشار إليه وأبان أن التحفيظ ابتداءً طريقة المشارقة، ونقد هذه الطريقة نقداً مرًا، وزكّى طريقة المغاربة والأندلسيين فى البدء بتعليم اللغة ، وتذوق الأدب، ثم يأتى دور دراسة القرآن بعد ذلك.

ونحن نريد أن نوفق بين حفظ كتاب الله والمحافظة عليه، وبين الانتفاع بكل القوى والمواهب فى الطفل وتربيتها جميعًا تربية متناسقة، بحيث يقوى بعضها بعضًا، ويعضد بعضها بعضًا، ولنجمع بين الفائدتين (١).

وهذا ما نريده.. أن نجمع بين الفائدتين.

وإليك أخى القارئ فى الأسطر القادمة تصورًا مقترحًا لذلك.

---

(١) نشرت فى مجلة النذير فى العدد (٦) من السنة الثانية فى يوم الاثنين الموافق ٦ من صفر سنة ١٣٥٨ هـ انظر نظرات فى كتاب الله للإمام الشهيد حسن البنا- جمع عصام تليمة، ص (٨٢).

تصور مقترح لحفظ الآيات
بطريقة الإيمان قبل القرآن

بداية التصور المقترح لحفظ الآيات بطريقة الإيمان قبل القرآن يبدأ بضرورة الاقتناع بأنه لاداعى للاستعجال فى الحفظ، فالصحابة رضوان الله عليهم- وهم من هم- كان اهتمامهم بالعمل بالقرآن قبل اهتمامهم بحفظ حروفه وكلماته، لذلك كان الحفاظ فيهم قليلين.

لقد بدأوا أمر القرآن من أوله.. وأول أمر القرآن هو الانتفاع به وتحقيق المقصود من نزوله، أما الحفظ فليس غاية فى حد ذاته، بل وسيلة مساعدة لتيسير الانتفاع بالقرآن من خلال سرعة استدعائه فى أى وقت وأى مكان.

النقطة الأخرى للتصور المقترح هو تبنى طريقة الصحابة فى الحفظ ، والتى أخبرنا عنها بعضهم كما مر علينا سابقًا، وأخبرنا كذلك أحد تلامذتهم وهو أبو عبد الرحمن السُلمى. يقول رحمه الله: إنما أخذنا القرآن من قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخرى حتى يعلموا ما فيهن من العمل. قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعًا، وإنه سيرث القرآن من بعدنا قوم يشربونه شرب الماء، لايجاوز هذا وأشار إلى حنكه (١).

وتكمن أهمية هذا الأثر فى أن صاحبه- وهو ليس من الجيل الأول بل من التابعين- ينقل لنا الطريقة السائدة فى حفظ القرآن بين الصحابة، وبعد أن اكتمل نزوله.

إذن **فالوسيلة الأولى** فى كيفية الحفظ هى: أن نأخذ كمًا قليلاً فى المرة الواحدة وليكن عشر آيات ولايتم الانتقال إلى العشر الأخر إلا بعد العمل بما فيهن وحفظهن كذلك.

الوسيلة الثانية:

تبنى طريقة «الإيمان قبل القرآن» فى الحفظ، والتى شرحها لنا جندب بن عبد الله

---

(١) فضائل القرآن للفريابى، ص (٢٤١).

عندما قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاير فتعلمنا الإيمان قبل القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً(١).

ويؤكد على هذه الطريقة عبد الله بن عمر بقوله: لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد فنتعلم حلالها وحرامها، وأمرها وزجرها، وما ينبغى أن يقف عليه منها (٢).

.. هذا هو الإطار العام الذى ينبغى أن نُلزم أنفسنا به ونحن نحفظ القرآن، ولأن الكثير منا قد تعود على حفظ القرآن بألفاظه فقط، وبكم كبير، دون ربط الآيات بمعانيها، وما فيها من هداية وإيمان وعمل، فإن من الصعب عليه الانتقال المباشر إلى الطريقة الأخرى المشار إليها تحت شعار «الإيمان قبل القرآن».

وفى هذه السطور طريقة مقترحة تساعدنا، ولو فى البداية، على التحول التدريجى نحو حفظ القرآن وربطه بالإيمان والعمل، وهى ليست إلزامية لأحد، ولكنها من باب الاستئناس، وكمرحلة انتقالية تعينه بإذن الله على التعود على حفظ اللفظ والمعنى، وترشده إلى كيفية استخراج الجوانب العملية من الآيات.

القرآن كتاب هداية:

منطلق التصور المقترح لحفظ القرآن أن القرآن كتاب هداية.. هذه الهداية لها جوانب متعددة تتعلق بكل ما يتصل ويخص الإنسان، سواء كان ذلك من داخله أو من خارجه، هذه الجوانب لوحظ أنها- فى الغالب- تتركز فى عشرة مواضيع، وهى التى تمت الإشارة إليها بشىء من التفصيل فى الفصل الثانى:

١- التعريف بالله عز وجل وحقوقه على العباد.

٢- التعريف بالرسول ﷺ والرسالة.

٣- التعريف بالإنسان.

٤- التعريف بالشيطان.

٥- التعريف بقصة الوجود ويوم الحساب.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

٦- معرفة السنن والقوانين الحاكمة للكون والحياة.

٧- التعرف على الكون المحيط.

٨- التعرف بحقوق العباد بعضهم على بعض.

٩- لماذا لايتبع الناس الحق؟ (فقه الدعوة إلى الله).

١٠- التعريف بالسابقين وأخذ العبرة منهم.

فالقارئ لكتاب الله سيجد أن هذه الجوانب العشرة تطل عليه فى كل لقاء له معه.

.. نعم قد لانجده مجتمعة فى بضع آيات من القرآن، ولكننا حتمًا سنجد بعضًا منها، وليس معنى هذا قصر هداية القرآن على هذه الجوانب، فلك أخى القارئ أن تضيف عليها أو تُعدل فيها كما تشاء فى الإطار العام لمقصد نزول القرآن، فهى- كما ذكرنا- ليست إلزامية لأحد.

لابديل عن العمل بالقرآن:

والجدير بالذكر أن الخروج بواجب عملى أو أكثر من الآيات المقرر حفظها، من الأهمية بمكان لكى يصبح القرآن حجة لنا لا علينا.

لذلك علينا ألا نتجاوز بضع آيات فى مقرر الحفظ- لنا ولأولادنا- وأن نستخرج منها جوانب الهداية، ونعيش معها فى صلواتنا، ونُلزم أنفسنا بالقيام بما فيها من عمل ولو لعدة أيام قبل أن ننتقل إلى الآيات الأخرى.

ولنثابر على ذلك، ولنتذكر أن عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- قد حفظ سورة البقرة فى اثنتى عشرة سنة أى بمعدل آيتين كل شهر!

نموذج مقترح:

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾

- من هو الله؟

- رب الناس: أى مربيهم ومدبر أحوالهم.

- ملك الناس : أى الذى يملك الناس ملكًا تامًا.

- إله الناس: هو المعبود بحق.

- الذى يحمى من يلجأ إليه.

٢- حقوق الله على العباد:

- الاستعاذة والالتجاء إليه سبحانه وتعالى من شر كل ذى شر.

٣- من هو الإنسان؟

- مملوك لربه (ملك الناس).

- ضعيف يحتاج إلى دوام الحماية من ربه.

- عنده قابلية للشر والقيام بعمل الشياطين (من الجنة والناس).

٤- من هو الشيطان؟

- الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس.

٥- الكون المحيط :

- يوجد حولنا مخلوقات لانراها (الجن).

الواجبات العملية:

- دوام الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

- كثرة قراءة سورة الناس لفضلها وفائدتها.

بشرى:

.. نعم إن تعلم استخراج المعانى الإيمانية من الآيات سيحتاج فى البداية إلى بعض الوقت، وبخاصة ونحن نريد تحقيق مدلولها فى الواقع.

ومع الاستمرار على ذلك، سنجد بعون الله وفضله أن تلك المعانى تتكرر فى الآيات والسور، مما سيجعل الحفظ يتم أيسر وأسرع من ذى قبل ، والله المستعان، وعليه التكلان.

الخاتمة

وأخيراً: القرآن ينادينا

وقبل أن ينتهى الحديث فى هذه الصفحات عن القرآن وعن كيفية العودة إليه، أنقل إليك أخى القارئ رسالة استشعرت وكأن القرآن يريد أن يرسلها لنا، يقول فيها:

أيها المسلمون فى كل مكان سارعوا بالعودة إلىَّ والانتفاع بى قبل أن تضيع منكم الفرصة، ويشتد بكم الندم.

أقبلوا علىَّ بكيانكم لتهتدوا بهداى، ولتستشفوا بشفائى، ولتنتفعوا بمواعظى...

اتركوا أنفسكم لى، وسيروا معى حيث سرت، فسأكون لكم - بمشيئة الله - نعم القائد الذى يقودكم إلى العيش السعيد فى الدنيا، والنعيم المقيم فى الآخرة.

انشغلوا بى، وأكثروا من تلاوتى، وتدبروا آياتى، واعملوا بما أدلكم عليه قدر استطاعتكم.. لا تبخلوا علىَّ بأوقاتكم، اجعلوا لى حظًا من نهاركم، ونصيبًا من ليلكم...

اصحبونى فى حلكم وترحالكم، ولكم عهد بألا أخذلكم، وألا أترككم تواجهون الصعاب بمفردكم بل سأكون معكم نعم الصديق لصديقه، وسأصحبكم فى قبوركم لتستأنسوا بى فى وحدتكم وستجدوننى أمامكم يوم القيامة أحاج عنكم حتى أرفعكم فى الجنة درجات ودرجات.

اعتصموا بى فأنا حبل الله المتين، من استمسك به ارتفع إلى السماء وتخلص من جاذبية الأرض والطين واقترب من مولاه.

إياكم ثم إياكم أن تستجيبوا لوساوس الشيطان بأنكم لا تصلحون لتدبرى وفهم آياتى، فيقيناً أن كل عاقل منكم يقدر على فهمى، والاهتداء بهداى، والتأثر بمواعظى، فلقد أودع الله فى آياتى القدرة على التأثير على الحجارة إن خاطبتها، فكيف بقلوب خلقها ربى لتكون أوعية لمعرفته؟

قد يتأخر الإمداد من ربكم لحكمة منه سبحانه فلا تيأسوا، وأيقنوا بأنه قادم لا محالة طالما اشتد عزمكم وتاقت أنفسكم للدخول إلى مأدبتى، وتذوق حلاوتى.

... عاهدونى أن تتلوا آياتى بترسل وتؤدة.. حركوا بها قلوبكم، وترنموا بها فى ليلكم، واجعلوا المعنى مقصودكم، ولا يكن همكم سرعة الانتهاء من وردكم.

لا تستصغروا أنفسكم، فلقد كرمكم مولاكم على سائر خلقه، وأسجد الملائكة لأبيكم... أنتم قادة هذا الكون الفسيح، وكل ما فيه مخلوق من أجلكم، مسخر لخدمتكم، فتقدموا إليه واجعلونى دليلكم، وافتحوا بى هذه الأرض، وتعرفوا على ما فيها من عوالم كثيرة، طال انتظارها لكم لتكتشفوا مكنوناتها، وما تحتويه من أسرار لأسماء الله وصفاته، فتزداد من خلالها معرفتكم بربكم.

سارعوا إلى حملى، فأمتكم أمة الإسلام -خير أمة أخرجت للناس- فى حالة من الضياع والتفكك والتشرذم لم يسبق لها مثيل، فلقد طال سباتها، واشتد مرضها، ولا علاج لها إلا من خلالى.

إن المستضعفين من إخوانكم المسلمين فى كل مكان ينتظرون الفرج، فاحملوا مصباحى، واجمعوا الناس حول نورى، وناولوا دوائى لكل شارد وغافل.

وأبشروا بالنصر فما أسرع تنزله على جيل القرآن...

سيعود لكم مجدكم الزائل وديياركم المسلوبة.. ستعود القدس ويافا وحيفا وعكا.. ستعود كشمير، والبلقان، والأندلس، وسترتفع راية التوحيد على روما، وستعود أمتكم أمة واحدة.. دستورها واحد، وغايتها واحدة، وخليفتها واحد.. العدل منهجه، وكتاب الله دليله، وما ذلك على ربكم بعزيز، واعلموا أن استمرار عزكم ومجدكم مرهون بتمسككم بى، فلا تقعوا بعد ذلك فيما وقع فيه من سبقكم عندما تركونى وانشغلوا بغيرى.

أنفذوا وصية نبيكم بالتمسك بى، واجعلونى وصيتكم لأبنائكم ولمن بعدكم تفوزوا بخيرى الدنيا والآخرة.

وفى النهاية:

نسأل الله عز وجل أن يتقبل منا ما وفقنا إليه من خير فى هذه الصفحات، وأن يتجاوز عما فيها من زلات، وأن يجعلنا جميعًا من أتباع القرآن، ومن جيل القرآن، ومن أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات..

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

أهم المراجع

- القرآن الكريم.
- الإتقان فى علوم القرآن – جلال الدين السيوطى – دار الندوة الجديدة – بيروت.
- إحياء علوم الدين – أبو حامد الغزالى – دار الحديث – القاهرة – ط١– ١٤١٢هـ.
- أخلاق حملة القرآن – أبو بكر الآجرى – دار الكتاب العربى – لبنان.
- آداب الشيخ الحسن بن أبى الحسن البصرى – ابن الجوزى – دار المعراج – الرياض – ط١ – ١٤١٤هـ.
- الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار – النووى – دار الهدى – الرياض – ط٦ – ١٤١٧هـ.
- أسماء الله وصفاته فى معتقد أهل السنة والجماعة – د. عمر سليمان الأشقر – دار النفائس – الأردن – ط٣ – ١٤١٨هـ.
- استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس – ابن رجب الحنبلى – المكتب الإسلامى – دار الخانى ط١ – ١٤١١هـ.
- إغاثة اللهفان – ابن قيم الجوزية – المكتب الإسلامى – بيروت– ط٢ – ١٤٠٩هـ.
- اقتضاء العلم العمل – للخطيب البغدادى – تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى – مكتبة المعارف – الرياض – ط١ – ١٤٢٢هـ.
- بحر الدموع – ابن الجوزى – مؤسسة الرسالة – ط١ – ١٤١٤هـ.
- التبيان فى آداب حملة القرآن – يحيى بن شرف الدين النووى – مكتبة طيبة – المدينة المنورة.
- التبيان فى أقسام القرآن – ابن قيم الجوزية – مكتبة الرياض الحديثة – الرياض.
- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى – الحافظ المباركفورى – دار الكتب العلمية – بيروت.
- تدبر القرآن – سلمان بن عمر السنيدى – المنتدى الإسلامى – ط١ – ١٤٢٢هـ.
- التذكار فى أفضل الأذكار – للإمام القرطبى – مكتبة دار البيان – دمشق – ط٣– ١٤٠٧هـ.
- تفسير القرآن العظيم – الحافظ ابن كثير – مكتبة العبيكان – المكتبة العصرية – بيروت – ط٢– ١٤١٧هـ.

- التفكر من المشاهدة إلى الشهود - د. مالك بدرى - الدار العالمية للكتاب الإسلامى - ط٤ - ١٤١٥هـ.
- تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان - عبد الرحمن السعدى - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١ - ١٤٢٠هـ.
- الجامع المنتخب من رسائل الحافظ ابن رجب - دار المؤيد - الرياض - ط١- ١٤١٨هـ.
- جامع بيان العلم وفضله - ابن عبد البر- تحقيق أبى الأشبال الزهيرى - دار ابن الجوزى - ط٣ - ١٤١٨هـ.
- جامع العلوم والحكم - ابن رجب الحنبلى - دار ابن الجوزى - السعودية - ط٢- ١٤٢٠هـ.
- الجامع لأحكام القرآن - القرطبى - دار الكتب العلمية - بيروت - ط٥ - ١٤١٧هـ.
- الحوادث والبدع - أبو بكر الطرطوشى - تحقيق عبد المجيد تركى - دار المغرب الإسلامى - ط١- ١٤١٠هـ.
- الداء والدواء أو (الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى) - لابن قيم الجوزية - دار ابن كثير - دمشق- ط١ - ١٤١٣هـ.
- الذل والانكسار للعزيز الجبار - ابن رجب الحنبلى - مكتبة التوعية الإسلامية - القاهرة - ط١ - ١٤١٤هـ.
- الزهد - الإمام أحمد بن حنبل - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٣٩٨هـ.
- الزهد - عبد الله بن المبارك - دار الكتب العلمية - بيروت.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة - محمد ناصر الدين الألبانى - مكتبة المعارف - الرياض - ١٤١٥هـ.
- سنن الدارمى - تحقيق د. محمود أحمد عبد المحسن - دار المعرفة - بيروت - ط١- ١٤٢١هـ.
- سنن ابن ماجه - تحقيق خليل مأمون شيحا - دارالمعرفة - بيروت - ط١ - ١٤١٦هـ.
- سير أعلام النبلاء - الحافظ شمس الدين الذهبى - مؤسسة الرسالة - بيروت -ط٢ - ١٤١٩هـ.
- سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز - ابن الجوزى- دار ومكتبة الهلال - بيروت -١٩٩٧م.
- شعب الإيمان - البيهقى - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤١٠هـ.
- صحيح الجامع الصغير وزيادته - محمد ناصر الدين الألبانى - المكتب الإسلامى - دمشق - ط٣ - ١٤٠٨هـ.
- صحيح الكلم الطيب لشيخ الإسلام ابن تيمية - محمد ناصر الألبانى - المكتب الإسلامى - دمشق - ط٦ - ١٤٠٤هـ.

- صحيح مسلم بشرح الإمام محيى الدين النووى -دار المعرفة - بيروت - ط٣ - ١٤١٧هـ.
- الطبقات الكبرى - ابن سعد - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١- ١٤١٠هـ.
- عون المبعود شرح سنن أبى داود - شمس الحق آبادى - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤١٠هـ.
- فتح البارى شرح صحيح البخارى - الحافظ ابن حجرالعسقلانى - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤١٠هـ.
- الفتح الربانى ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى - أحمد عبد الرحمن البنا - دار إحياء التراث العربى - بيروت.
- فضائل القرآن - ابن الضريس - تحقيق غزوة بدير - دار الفكر - دمشق.
- فضائل القرآن - أبو عبيد القاسم بن سلام الهروى - تحقيق مروان العطية - دار ابن كثير - دمشق - ط٢ - ١٤٢٠هـ.
- فضائل القرآن وتلاوته - الحافظ أبو الفضل الرازى - دار البشائر الإسلامية - بيروت - ط١ - ١٤١٥هـ.
- فضائل القرآن - الحافظ ابن كثير- دارالمعرفة - بيروت - ط٢ - ١٤٠٧هـ.
- فضائل القرآن - أبى بكر الفريابى - تحقيق د. يوسف عثمان - مكتبة الرشد - الرياض- ط٢ - ١٤٢١هـ.
- فضائل القرآن للإمام النسائى - تحقيق د. فاروق حمادة - دار إحياء العلوم- بيروت - ط٢ - ١٤١٣هـ.
- فضل علم السلف - الحافظ ابن رجب - دار الحديث - القاهرة.
- فقه السيرة - محمد الغزالى - دار القلم - دمشق - ط٦ - ١٤١٦هـ.
- الفوائد - ابن قيم الجوزية - دار النفائس - بيروت - ط٧ - ١٤٠٦هـ.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير - المناوى - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١- ١٤١٥هـ.
- فى ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق - القاهرة - ط١٥- ١٤٠٨هـ.
- قاعدة فى فضائل القرآن - شيخ الإسلام ابن تيمية - مكتبة الظلال- الإحساء - السعودية.
- كن كابن آدم - جودت سعيد - دار الفكر - دمشق - ط١ - ١٤١٩هـ.

- كيف نتعامل مع القرآن؟ - محمد الغزالى - دار الوفاء - المنصورة - مصر - ط٢- ١٤١٢هـ.
- مباحث فى علوم القرآن - مناع القطان - مؤسسة الرسالة - ط٢١ - ١٤٠٧هـ.
- مجلة الإعجاز العلمى - هيئة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة - رابطة العالم الإسلامى - العدد التاسع - صفر ١٤٢٢هـ.
- مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا- دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة.
- مختصر قيام الليل - محمد بن نصر المروزى - مؤسسة الرسالة - ط٢ - ١٤١٤هـ.
- مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية - دار الكتب العلمية - بيروت.
- المصاحف- ابن أبى داود - دار البشائر الإسلامية - ط٢- ١٤٢٣هـ.
- معالم فى الطريق - سيد قطب- دار الشروق - القاهرة - ط١٠ - ١٤٠٣هـ.
- معرفة شأن القرآن- محمد أبو البشر رفيع الدين - جدة - ط١ - ١٤١٨هـ.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة - ابن القيم - دار ابن عفان - الخبر - السعودية - ط١ - ١٤١٦هـ.
- مقالات الإسلاميين فى رمضان - د. محمد بن حسن عقيل موسى الشريف - دار الأندلس الخضراء - جدة - ط١ - ١٤٢٢هـ.
- مقدمة فى أصول التفسير - شيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق أبو حذيفة إبراهيم بن محمد - دار المؤيد - الرياض - ط١ - ١٤٢٣هـ.
- مقومات التصور الإسلامى - سيد قطب - دار الشروق - القاهرة.
- موسوعة رسائل ابن أبى الدنيا - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - ط١ - ١٤١٤هـ.
- نظرات فى التربية والسلوك لحسن البنا -جمع وترتيب عصام تليمة - دار البشير - جدة - ط١ - ١٤٢٢هـ.
- نظرات فى كتاب الله للإمام الشهيد حسن البنا - جمع عصام تليمة - دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة.
- النبأ العظيم - د. محمد عبد الله دراز - دار طيبة - الرياض - ط٢ - ١٤٢١هـ.
- الوابل الصيب من الكلم الطيب - ابن قيم الجوزية - مكتبة المؤيد - الرياض - ط٥ - ١٤١٤هـ.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣

الفصل الأول

لماذا أنزل الله القرآن؟

خلق آدم	٧
الهبوط إلى الأرض	٨
المشهد العظيم	٩
حب الله لعباده	١١
الرسالة الأخيرة	١٣

الفصل الثانى

جوانب الهداية فى القرآن

مفهوم الهداية	١٩
كيفية الهداية القرآنية	٢١
الجانب الأول: التعرف على الخالق وواجبنا تجاهه	٢٣
المعرفة طريق الخشية والإجلال	٢٣
كيف نعرف الله؟!	٢٤
دور القرآن فى معرفة الله	٢٥
الجانب الثانى: الرسول والرسالة	٢٨
الجانب الثالث: التعريف بالإنسان	٣١
الجانب الرابع: التعريف بالشيطان	٣٤
الجانب الخامس: قصة الوجود ويوم الحساب	٣٦
القرآن وقصة الوجود	٣٩
الجانب السادس: معرفة السنن والقوانين الحاكمة للكون والحياة	٤٢
الجانب السابع: التعرف على الكون المحيط	٤٦

الجانب الثامن: حقوق العباد بعضهم على بعض ٤٨
الجانب التاسع: فقه الدعوة إلى الله ٥١
الجانب العاشر: العبرة من قصص السابقين ٥٥

الفصل الثالث

القرآن والتغيير

أين القدوة؟ ٦١
المعجزة الكبرى ٦٢
كيفية التغيير القرآنى ٦٣
المحور الأول: القرآن والعقل ٦٤
الشعور واللاشعور ٦٥
القرآن واللاشعور ٦٨
المحور الثانى: القرآن والقلب ٧٣
القلب بين الإيمان والهوى ٧٣
مرض القلوب وصحته ٧٤
القرآن ودوره فى دخول الإيمان القلب ٧٦
القرآن وزيادة الإيمان ٧٨
القرآن وشفاء القلب ٧٩
القرآن وحياة القلوب ٨٠
القرآن والسير إلى الله ٨٠
الطريق إلى العبودية ٨٣
المحورالثالث: القرآن والنفس ٨٥
أنواع الشهوات ٨٥
معرفة حق الله ٨٨
من فوائد النظر فى حق الله ٩١
معرفة النفس ٩٣
نماذج تربوية ٩٧

احتياجات التغيير القرآنى ٩٨
أهمية وجود المربى ١٠٠

الفصل الرابع

القرآن بين الأولين والآخرين

الرسول والقرآن ١٠٣
التحذير من عدم الانتفاع بالقرآن ١٠٤
عدم الاختلاف فى القرآن ١٠٦
صفاء المنبع ١٠٦
الجيل الجديد ١٠٧
من وصايا الصحابة ١٠٨
١- التفرغ للقرآن ١٠٩
٢- المعنى هو المقصود ١١١
٣- تصحيح مفهوم حامل القرآن ١١٣
٤- الإيمان قبل القرآن ١١٣
٥- ضرورة تدبر القرآن ١١٥
٦- عدم التعمق فى إقامة الحروف ١١٧
٧- اترك نفسك للقرآن ١١٨
حالنا مع القرآن ١٢٠
تاريخ هجر القرآن ١٢١
واقع الأمة الإسلامية ١٢٣

الفصل الخامس

حاجتنا إلى القرآن

التشخيص ١٢٧
القرآن هو الحل ١٢٩
لماذا القرآن؟ ١٣١
القرآن وجمع كلمة الأمة ١٣٢

سمات المنهج القرآنى ١٣٣
دفع شبهة ١٣٣
حاجة الفرد إلى القرآن ١٣٤
أولاً: تحقيق الربانية ١٣٥
ثانيًا: تحقيق السعادة ١٣٥
ثالثًا: زيادة الإيمان ١٣٦
رابعًا: التذكر الدائم لحقائق الإيمان ١٣٧
خامسًا: تحصيل العلم النافع ١٣٨
سادسًا: العصمة من الفتن ١٣٩
سابعًا: حسن التعامل مع متغيرات الحياة ١٤٠
ثامنًا: الوصول إلى صداقة القرآن ١٤٠

الفصل السادس

عقبات فى طريق العودة

العقبة الأولى: الاهتمام بالشكل فقط ١٤٦
بركة القرآن ١٤٧
ختمتان للقرآن ١٤٧
الوسائل والغايات ١٤٧
العقبة الثانية: الخوف من تدبر القرآن ١٥١
التلقى المباشر من القرآن ١٥٣
العقبة الثالثة: مفهوم التدبر وطبيعته ١٥٥
العقبة الرابعة: ضرورة ختم القرآن فى مدة محددة ١٥٧
العقبة الخامسة: أمراض القلوب ١٥٨
العقبة السادسة: مفهوم الانشغال بالقرآن ١٥٩

الفصل السابع

كيف نعود إلى القرآن؟

الدعاء والتضرع إلى الله ١٦٣

القرآن والأولويات ١٦٥
سلامة النطق ١٦٥
الوسائل العملية للانتفاع بالقرآن ١٦٧
أولاً: المداومة على التلاوة اليومية ١٦٨
ثانيًا: تهيئة الجو المناسب ١٦٨
ثالثًا: التركيز مع القراءة ١٦٩
رابعًا: أن نجعل المعنى هو المقصود ١٦٩
خامسًا: التجاوب مع القراءة ١٧١
سادسًا: ترديد الآية التى تؤثر فى القلب ١٧٢
سابعًا: استصحاب معنى من المعانى الإيمانية ١٧٣

الفصل الثامن

معينات على الطريق

أولاً: كثرة ذكر الموت ١٨١
ثانيًا: قيام الليل ١٨٣
ثالثًا: دراسة السيرة النبوية ١٨٤
رابعًا: التفسير ١٨٤
خامسًا: الدعوة إلى الله ١٨٥
سادسًا: حلقات المدارسة ١٨٧
سابعًا: حفظ القرآن ١٨٧
الصغار وحفظ القرآن ١٩٠
تصور مقترح لحفظ الآيات بطريقة الإيمان قبل القرآن ١٩٣
نموذج مقترح ١٩٥
بشرى ١٩٦
الخاتمة.. وأخيرًا، القرآن يناديا ١٩٧
المراجع ١٩٩
الفهرس ٢٠٣

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية/العاشر من رمضان/المنطقة الصناعية ب٢ تليفاكس : ٣٦٢٣١٣ - ٣٦٣٣١٤

Printed in Egypt by ISLAMIC PRINTING & PUBLISHING Co. Tel:. 015 / 363314 - 362313